الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد بوضياف المسيلة
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
قسم الفلسفة

العنوان:

الفكر الأخلاقي عند لودفيج فويرباخ

مذكرة مكملة لنيل شهادة الماستر في الفلسفة

إعداد الطالبة:
بن جدو خولة

إشراف الدكتور:
زروخي الدراجي

السنة الجامعية: 2017/2016

إهـداء

الى التي أبعدت عني شقاء الزمان، واغرقتني بعطفها وبالحنان.... انت التي علمتني معنى الصبر والايمان، اليك انت فقط هبة الرحمان امي يا ملكتي...

الى الذي رسم لي خطى دربي، ساكنا قلبي فكان لي خير سند...طالما كنت الرجل الأول في حياتي، محتو لي ولآهاتي... اليك انت ابي حبيبي

اهدي هذا العمل المتواضع الى الروح الفيورباخية أينما حلت ناشرة معاني الحب والسعادة

الى اخواتي: مروة، سارة، رحيل

أخواي: مصطفى الصديق، ريان

الى عائلتي بن جدو، ناعم الى صديقتي زينب، أسماء صديقي لخضر شيخاوي والى كل طلبة الفلسفة بالمسيلة ومكتبة السفير

اهدي هذا العمل البسيط الى كل من يعرف

خولة

شكر وتقدير

قال الله سبحانه وتعالى:" وسيجزي الله الشاكرين" صدق الله العظيم.

يا رب شكرك واجب محتم ... ها أنا بالشكر أتكلم

عدا النجوم بعرض السماء مقدارا ... يرضيك أني بعد شكرك مسلم

مالي أرى الإله تحيطني ... من كل نحب ثم لا أتكلم

دعني أحدّث بالنعيم فإنّني ... ممن يقر ولست ممن أتكلم

نحمد الله حمدا كثيرا طيبا كثيرا وشكره شكرا جزيلا الذي كان فضله كريما بحمده لأنه سهل لنا المبتغى وأعاننا على إتمام هذا العمل الذي نسأله أن يكون خالصا لوجهه الكريم.

كما أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذنا الفاضل والمشرف عنّي وعلى مذكرتي الدكتور "زروخي الدراجي" والذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته ونصائحه القيمة، ومنحني منهجية البحث العلمي المثلى وقد لا تؤدي الكلمات معناها بصدق وقد لا يكون الاعتراف في مستوى الإقرار بالجميل والشكر الجزيل للدكتور على التوجيه والنصائح القيمة الثمينة التي قدمها لنا، أشكره جزيل الشكر ونحيي فيه تلك الشخصية المميزة بكل ما تحمله من أخلاقيات وروح سامية بعيدا عن المجاملة.

خولة

مقدمة

بدأت الفلسفة كما بدا الدين مع بداية ظهور الانسان على الأرض. فكان يتساءل عن سبب وجوده وكيفية حياته ومصيره وعن القوة الإلهية الخارقة التي خلقت هدا الكون منظما منسجما كل شيء فيه بقدر.

وقد بدأت هده التساؤلات لدى المفكرين القدماء المصريين ومفكري (الهند والصين بلاد فارس القديمة) بعدها بدأت الفلسفة تأخذ خطا جديدا مع الفلسفة اليونانية حتى وان كانت تحمل في طياتها التساؤل القديم بعد دلك بدأت الفلسفة تتفرع وتتخصص بخصوصيات المجتمع، السياسة، الاقتصاد، الأيديولوجية

إلى ظهور العصر الوسيط، فامتازت الفلسفة الاوربية في هدا العصر بالسكولائية وكانت هي الإطار الفكري والرئيسي فكونت منه اغلب ان لم نقل كافة المذاهب الفلسفية الأساسية كما عنيت بمشكلات محددة مثل العلاقة بين الله والعالم، الايمان والمعرفة، الحقيقة الفلسفية والحقيقة الدينية، طبيعة المفاهيم العامة، الكليات علاقة الخاص بالعام وأدى الاختلاف بينها الى الاختلاف في الاتجاهات فظهر العقليون الدين رأوا بأن الفلسفة والدين يختلفون اختلافا تاما وجذريا من حيث الجوهر، رجال العلم المسائل الغيبية هي مسائل لا عقلية. والعلم مستقل تماما عن الدين، وموقف ثالث يوافق على وجود علاقات ضرورية بين الفلسفة والدين ويقبلون بعض مقدمات الحجج العقلية كفلسفة توما الإكويني والفلسفتين النصرانية والإسلامية اللتان حاولتا التوفيق بين الفلسفة والدين وعليه فالفكر كان يتمحور حول الدين وموضوعاته وجود الله وصفاته، الملائكة، الأشياء الغيبيات وتكوين الانسان المهم ان هده المرحلة نصبت جل اهتماماتها عن الدين وقضاياه وعلاقته بالفلسفة والفكر، الى بزوغ انوار العصر الحديث الدي ظهرت فيه ملامح الفلسفة المبتعدة نوعا ما عن الماورائيات الخاصة بالدين، وتحول مسارها فبعد ان كانت تهتم باللاهوت وما يحيط به صارت تهتم بالفكر وبالعقل الإنساني وابعاده فتغيرت تلك النمطية التي عهدتها الفلسفة في العصر الوسيط، لتسير في مناح أخرى متعددة ومتفرعة فهناك فلسفات الهت العقل البشري وخلقت منه الموضوع الأول والأخير للفلسفة الفلسفات العقلية كما ظهرت طوائف أخرى ارجعت المعرفة الإنسانية للحواس والواقع العيني المجرد وهي الفلسفات التجريبية. الى ظهور الفلسفة الفيورباخية، لودفيغ فيورباخ* الذي رسم بفكره لهاته الفلسفات السابقة عنه سواء كانت العقلانية او التجريبية جدول نار او مصفاة تتطهر منها هده الفلسفات، إضافة الى انه حول الفلسفة من موقعها السابق الى موضعها الأصلي والدي ظهرت من اجله. فنقل مركز اهتمام

* لودفيج أندرياس فيورباخ: فيلسوف المانى ولد في (1804 -1872) في مدينة لاندسهوت بولاية بافاريا الألمانية في البداية كان تلميذا لهيجل ثم اصبح من ابرز معارضيه أدى كتابه أفكار حول الموت والخلود الذي نشر تحت اسم مستعار الى فصله من الجامعة وكانت احدى الخدمات التي اداها فيورباخ انه اكد على الرابطة بين المثالية والدين. وانتقد بشكل حاد الطبيعة المثالية للجدل الهيجلي وقد فتح هذا الطريق الى الاستفادة من المضمون العقلي للفلسفة الهيجلية . وساعد في هذا الصدد على تشكيل الماركسية، وساعد في هذا الصدد على تشكيل الماركسية تطورت آراءه حول الموقف المادي من الدين من أفكار الهيجليين الشبان الى المادية من اهم مؤلفاته جوهر المسيحية، مبادئ فلسفة المستقبل..

هده الأخيرة من ما وراء الواقع الى الواقع نفسه، لان في دراستها له ستتوصل للحقائق الفلسفية هدا لم يكن من محض الصدفة بل توصل اليه فيورباخ من خلال تطبيقه للمنهج الشكي التحويلي للديانة المسيحية، وللفلسفات السابقة مما دفعه للاختلاف مع معاصريه في تناوله للفلسفة ونقده لها خصوصا فلسفة هيجل ودحضه للفكر اللاهوتي ففلسفته تعيد الانسان لذاته بدلا من ان تقيده في انساق مذهبية معقدة، وعليها ان تتجه الى تأمل الحياة والطبيعة والمجتمع بدلا من الارتباط بمقولات جامدة وكتب مكدسة، وباعتبار ان الفكر الأخلاقي يعتبر من اهم المباحث في الفلسفة واكثرها جدبا للفلاسفة فان معاصري فيورباخ قد انقسموا واختلفوا في تحديدهم لطبيعتها ومصدرها فمنهم من صنفها بانها تحمل طابع عقلي محض وفريق اخر ارجعها للواقع المحسوس وإذا أخذنا بعين الاعتبار ان هذا الأخير قد خالف معاصريه فإننا نطرح التساؤل التالي كيف عالج لودفيج فيورباخ موضوع الاخلاق وما هي طبيعة الاخلاق عنده؟ وما مصدرها؟

ولأن الفلسفة حسبه عليها ان توقظ الفكر وتفتح العقل البشري وتعيد الانسان لذاته بدلا من ان تقيده في انساق مذهبية معقدة، وعليها ان تتجه الى نأمل الحياة والطبيعة والمجتمع بدلا من الارتباط بمقولات جامدة وكتب مكدسة. وبهذا نجده قد ادخل الحواس بين الفكر والوجود مؤسسا بذلك نظريته الإنسانية ولعل هذه الحقائق هي من اهم الأسباب التي دفعت بنا لاختيار هذا الموضوع. ان فيورباخ قد وقف فعلا على ثقافة إنسانية علمية محررا وموقظا للفكر هذه الإشارة الفيورباخية السابقة لأوانها والممهدة للعديد من الفلسفات المعاصرة هي من غرست فينا اختيار هذا الموضوع ومحاولة الاستعانة بفكره في عصرنا الحالي، كنظرية إنسانية راقية يحتاجها الانسان المعاصر، المغترب والمستلب، انسان ما بعد الحداثة، كم هو محتاج لفكر فيورباخي انساني مغمور بالمحبة والإنسانية بغض النظر عن الاختلاف. وحتى لنتمكن من إيصال هذه الفكرة ولو ببساطة وايجاز، ارتأينا الى وضع الخطة المتواضعة التالية:

الفصل الأول: بعنوان مصادر الاخلاق عنده فيه نعرض دحض فيورباخ للاهوت من باب انه مجال لا نستطيع التحقق منه على ارض الواقع وقد حاولنا عرض نظرياته الشهيرة في هذا الباب كفكرة الاغتراب الديني عند الانسان ونظرية المرآة العاكسة، بعد ذلك نوضح التقبل الفيورباخي لفكرة الدين والذي يعرفه كمفهوم شامل انساني واقعي لنصل بعد ذلك لانتقاداته الموجهة لهيجل على أساس انه من لم يهجر فلسفة هيجل لم يهجر اللاهوت.

الفصل الثاني: جاء بعنوان تأسيسه للانثروبولوجيا الفلسفية الانسانولوجيا وهي القلب في فلسفته ثم ابعاد الانسان الفيورباخي وهي اهم الصفات التي رسمها فيورباخ في الفرد المستقبلي، بعد ذلك نعرض الطبيعة البشرية عنده والتي تتشكل من ثالوث الإرادة، العقل، والوجدان.

الفصل الثالث: وهو المرحلة الناتجة عن المقدمتين السابقتين فبعد نقد فيورباخ للاهوت وانزاله لهيجل من على عرش الفلسفة مؤسسا بذلك فلسفة إنسانية جديدة ورؤية مستقبلية محددا فيها الطبيعة البشرية نجده قد وصل لذروته حينما ميز هذا الانسان الفيورباخي بالإرادة والسعادة فالإنسان الذي يريد الانا يريد تحقيق السعادة والسعادة هي غاية هذا الانا لذا ارتقى بها الفكر الفيورباخي من الانانية للغيرية لتصبح حب لأنه في الحب فقط يخرج الانسان من قوقعته الداخلية الانانية ليدخل في ذات الاخر بعد ذلك ينادي فيورباخ بوضع السياسة في قالب أخلاقي شامل وعام وهو عنوان المبحث الأخير أخلقة السياسة ان فيورباخ من بين أولئك الفلاسفة الذين هضم حقهم في التاريخ، فلا نجد دراسات معمقة حوله مما شكل لنا حاجزا امام دراستنا فقليلا ما نجد مؤلفات او مذكرات تهتم بهذا الفكر خصوصا في الجانب الأخلاقي مما دفع بنا إلى اتباع المنهج التحليلي والذي جاء كنتيجة حتمية للموضوع.

الفصل الأول: نقد فيورباخ للثيولوجيا

يعتبر العصر الحديث من أهم الحقب الفلسفية في تاريخ الفلسفة، وقد تناول هذا العصر المعرفة محاولا التوصـــل إلى أصـــلها وطبيعتها: إلا أن المتتبع والدارس للتاريخ يلاحظ تلك النقلة التي لم يســـبق لها مثيل في الدراسـات الفلسـفية، وهي الفكر الفيورباخي والذي جاء كمصـفاة للفلسـفات السـابقة عنه كما صـارت نموذجا للاحقة لذا فبدايات تفلسفه جاءت كحملة نقديه شملت الفلسفة واللاهوت معا

المبحث الأول: مصادر الأخلاق عنده

قبل ان نتطرق لعرض اهم النقاط التي اســـتقى منها فيورباخ فكره الأخلاقي علينا أولا تحديد مفهوم الاخلاق وقد ورد في معجم جميل صـــليبا ان الاخلاق هي: **"الأخلاق في اللغة جمع خلق، وهو العادة والســـجية، والطبع، والمروءة، والدين. وعند القدماء ملكة تصـــدر بها الأفعال عن النفس من غير تقدم وروية وفكر وتكلف. غير الراسـخ من صـفات النفس لا يكون خلقا، كغضـب الحكيم، وكذلك الراسـخ الذي تصـــدر عنه الأفعال بعســـر وتأمل، كالبخيل إذا حاول الكرم، وقد يطلق لفظ الأخلاق على جميع الأفعال الصـادرة عن النفس محمودة كانت أو مذمومة، ويسـمى علم الأخلاق بعلم السـلوك، أو تهذيب الأخلاق، أو الحكمة العملية، أو الحكمة الخلقية، والمقصـــود به معرفة الفضـــائل، وكيفية اقتنائها لتزكو بها النفس ومعرفة الرذائل وتتنزه عنها النفس"**[1] صـليبا نجده قد عرف الاخلاق كتعريف شـامل متعارف عليه فقد أعطاها البعد الإيجابي الدي يتبادر في اذهاننا وهو المروءة والطبع والسـجية وما يشـملها من تلك الصـفات الحميدة.

اما مراد وهبه فقد عرف الاخلاق على" **انها ذلك العلم الدي يبحث في الاحكام الخاصـــة بالخير والشر، والفضيلة. وهو على نحوين: اما ان يتجه الى تحليل سيكولوجي او سيسيولوجي لأحكامنا الخلقية لبيان أســـباب اســـتحســـاننا او نفورنا، والى بيان أســـلوب الحياة الدي ينبغي ان تحتذيه كأســـلوب خير او حكيم. والاهتمام هذا لا ينصـب على الاستحسـان بل على الفعل، ولا ينصـب على تفسـير الفعل بل على توجيهه، ولهذا فإن الاهتمام هنا يقوم في البحث عن مثال او معيار معين للســـلوك، او غاية او الخير الأعظم. النحو الأول ســـائد عند هيوم ووســـتر مارك وشـــليك. والنحو الاخر ســـائد عند غيرهم**

[1] جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، مادة الاخلاق، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1982، ص50.

من الاخلاقيين. ومع ذلك فالنحوان يشـــتركان في البحث عن المعنى القضـــايا الخلقية وصـــدقها وكذبها، وموضوعيتها وذاتيتها، وعن وضعها في نسق يستند إلى مبادئ أولية"[1]

وقد عرفها اندريه لالاند على انها: "**مجموعة من القواعد السـلوكية المقبولة في عصـر ما او من قبل جماعة بشـرية أخلاقية صـارمة أخلاقية ذميمة أخلاقية متراكبة لكل شـعب اخلاقيته التي تتحدد بالشـروط التي فيها يعيش، وثانيا لا يمكن ان تنســخ عتها أخلاقية أخرى. فهي مجموعة القواعد الســلوكية المعتبرة صـالحة بلا شـرط. علم الاخلاق بهذا المعنى تتضـمن الكلمة دوما ان النظرية المقصـودة ترمي الى عواقب معياري وقد لا تقال على علم موضوعي ووصفي للآداب او حتى للأحكام الأخلاقية**".[2]

1-رفضه اللاهوت:

ان فيورباخ قد ابتدأ مسـيرته الفلسـفية من خلال توجيهه لعدة انتقادات لجل الفلسـفات التي سـبقته ولعل النزعة النقدية قد ظهرت ملامحها وبشـــدة عندما زعزع بأفكاره علم اللاهوت محاولا دحضـــه مبينا بذلك نقاط الضعف في هذا العلم. والتي طالما كان يتغنى بها المتخصصين في هذا المجال.

لقـد اهتم فيورباخ بالمجـال الـديني ومنـذ بـدايات تفلســـفـه، فقـد ميز بين كـل مـا هو ديني وبين ما هو لاهوتي فتقبل فكرة الدين ورفض فكرة الله أو كل ما هو لاهوتي لأن وجد فيه خطر على التفتح البشـري والرفاهية الإنسـانية والتقدم الفكري ولا نسـتطيع تحديد تقبله لإحداهما ورفضـه للأخرى دون التعريف بكلتاهما، ولذا سنتطرق في بادئ الامر الى التعريف بالدين وقد جاء في معجم إبراهيم مدكور على النحو التالي:

الدين Religion: "**هو مجموعة من المعتقدات وعبادات مقدســة تؤمن بها جماعة معينة، يســد حاجة الفرد والمجتمع على حد ســواء أســاســه الوجدان وللعقل مجال فيه**". [3] فقد ربط إبراهيم هنا الدين بالجانب العقائدي وبتلم الطقوس الخاصـة بديانة ما دون سـواها والتي من خلالها يتوثق الرباط بين جماعة ما، أما المعجم الفلســـفي لمراد وهبة فقد عرف الدين مميزا إياه عن فلســـفة الدين كالتالي: "**الدين هو لفظ إفرنجي مشـــتق من الفعل Religion بمعنى يربط، وبالتالي فالدين هو ما يربط جماعة ما أما فلسـفة الدين فيه الفحص المنهجي لعناصـر الوعي الديني في علاقتها بالثقافة والممارسـات الدينية من حيث أنها شـواهد على حيوية**

[1] مراد وهبه، المعجم الفلسفي، مادة الاخلاق، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007. ص33.

[2] اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2. 2001. ص839

[3] المعجم الفلسفي، إبراهيم مذكور، القاهرة: الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، 1983. ص 87.

الاعتقاد."[1] هنا مراد وهبه يشير الى ان اشتقاق لفظ الدين من خلال شرحه كمصطلح افرنجي ففي تفسيره له وجده يدل على الربط وبهذا يميز مراد وهبه بين مصطلح الدين وفلسفة الدين هي الدراسة المنهجية المعمقة للوعي الديني وعلاقته بالطقوس أي الجانب النظري وارتباطه بالجانب التطبيقي لان التطبيق هو مظهر حي ملموس للفكرة الدينية وهنا فمعنى مصطلح الدين مغاير لفلسفة الدين.

غير ان اللاهوت فيعرف حسب جلال الدين سعيد على النحو التالي: **الله** بالمعنى الأنطولوجي لهذا اللفظ هو المبدأ الأوحد والأعلى للوجود والنشاط الكونيين، وإما كجوهر محايد للموجودات، وإما كعلة متعالية على الكون ومبدعة له من الخارج، وإما كغاية للكون والوجود مثل المحرك الأول الذي لا يتحرك عند أرسطو والذي تصبو إليه جميع الكائنات ولقد تطورت فكرة الإله من الديانات البدائية التي تقوم على عبادة الظواهر الطبيعية إلى البيانات الأسطورية." [2]**واللاهوت الله** هو الخالق، والناسوت هو المخلوق وعلم اللاهوت هو علم مرادف لعلم الكلام والربوبية.

لقد اهتم فيورباخ بالقضايا اللاهوتية وانشغل بها حتى صار أكثر اهتماما بها من اللاهوتيين أنفسهم وبعد تحليلاته وتعمقه في هذه القضايا نجده توصل إلى الرفض التام والمطلق الاعتقاد القائل بوجود كائن آخر في الطبيعة يتحكم فيها أو أن الطبيعة يملأها ويحكمها أو يتحكم فيها كائن آخر مختلف عنها فوجود هذه الأخيرة–الطبيعة–ليس مبنيا على وجود الله كما يعتقد الفلاسفة التأليهين، أو الفلاسفة العقلانيين الذين تقوم رؤيتهم الفلسفية لحقيقة الوجود وأصله وسببه والغاية الكمنة من ورائه. جل الاعتقاد هو اعتقاد مبني على وجود الطبيعة، فالكائن الموضوعي لا يوجد فعلا خارجا عن الإنسان هو الطبيعة، وهي ما جسدها الإنسان في اعتقاده بوجود الله. [3] ففيورباخ هنا يرى بأن النظرة الفلسفية اللاهوتية ترى بأن الله هو الموجد للطبيعة وللكون ولا غيره يتحكم في الحركة الكونية برمتها كذلك صارت الطبيعة عند البعض الدليل القاطع على وجود الخالق كفكرة لا مصنوع دون صانع عند أرسطو لإثبات على وجود الله.

[1] المعجم الفلسفي، مراد وهبة، القاهرة: دار القباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، 200، ص 315.

[2] جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004.ص 400.

[3] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص 92.

فالطبيعة حسبه هي من جسدت ورسخت فكرة وجود الله عند الإنسان وانتقادات فيورباخ هنا تأتي على حد قول مارتن بوبر وراء قصة الخلق الثانية، وهي الإصحاح الثاني من سفر التكوين، أي خلق التاريخ حيث لا يوجد سوى عالم الإنسان والإنسان في مركزه هو من يعطي كل الكائنات الحسية اسمها الحقيقي. [1]

إن هذه العملية التي قام بها ففيورباخ وهي عملية تحويل الصفات الإنسانية أو البشرية هي عملية جدلية مقلوبة، فإذا نحن نميز هنا بين العقل والطبيعة أي بين الله والإنسان إن عملية إسقاط الصفات الإنسانية على الله، تعتبر اغترابا.ويعرف **الاغتراب Aliénation**: **"لغة هو البعد عن الأهل والوطن، أما عند هيجل فهو العالم الموضوعي الذي يمثل الروح المغتربة، وغاية الفلسفة أن تقهر هذا الاغتراب عن طريق المعرفة وتقدم الوعي."[2]**

اما مصطلح الاغتراب عند لالاند فقد ربطه ب:" **الارتهان او الانسلاب ففي المعنى الحقوقي والقديم هو بيع او تنازل عن حق الى شخص. وهو، مجازا: حال المنتسب الى اخر مولى، ملوك والمنتسب aliéné: اشتقاقا لا تحتمل الكلمة سوى تعريف غيبي او لفظي هو الذي لا يمتلك ذاته. لتكوين فكرة علمية نفسية عن الانسلاب العقلي، ليس المطلوب التفريق بينه وبين الصحة العقلية، بواسطة علامات منتقاة عشوائيا، بل المطلوب تقريبه من النقيض، وفقا لمبدا كلود بيرنارد، هذا الذي يقول ان المرضي ليس سوى الطرف الأقصى للسوي، اما من الوجهة البيولوجية والاجتماعية فقد يكون من الخطأ أيضا تمييز الانسلاب العقلي بالقول ان الانسان المعافى يكون متكيفا مع بيئته، بينما لا يكون المنسلب متكيفا معه"**[3]، أما عند فيورباخ نجد أن الاغتراب الأساسي هو الاغتراب الديني، هذا الاغتراب هو أساس كل اغتراب فلسفي أو اجتماعي، نفسي أو بدني. فالاغتراب إذا كان في معناه هو انقلاب الأنا إلى آخر، أو خروجه من الذات لتدخل في أخرى، فإن هذا الخروج أول ما يحدث مع الإنسان حين خروجه ليتحول إلى الله قبل أن يتحول بعد ذلك إلى أي شيء آخر مما زعزع ذات الإنسان وكيانه.

إن فيورباخ في طرحه لهذه الفكرة يريد التأكيد على أن الاعتقاد بوجود كائن آخر على سلطة وأقوى من الإنسان هي عبارة عن فكرة مرضية نفسية تدعى بالاغتراب من الناحية النفسية هو عبارة عن حالة مرضية

[1] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، دار الثقافة العربية للطباعة، والنشر، القاهرة، 2007، ص 119.

[2] ابراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للشؤون الاميرية، القاهرة. 1982.ص 16.

[3] اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ص 43.

يعيشها الفرد أثناء خذلانه من طرف آخر أو المجتمع، كما أنه يظهر في الحالات التي يعجز فيها الإنسان تحقيق الكمال والقوة وفرض هيمنته على أرض الواقع. ونتيجة لهذا الخذلان ولانكسار الثقة بين الفرد والآخرين من جهة، ولفشله كذلك في تحقيق رغباته، يخرج الإنسان من ذاته ويخلق لنفسه كائنا أقوى منه تتجسد فيه جميع الصفات والطاقات التي يخفق الإنسان في تحقيقها، فيضع تلك الصفات في هذا الكائن الغيبي ويجعل منه معبودا وذلك لغايتان هما: أولا تحقيق ذاته في هذا الكائن والغاية الثانية هي الهروب من هذا الواقع الذي يظهر فيه هذا النقص للفرد. فالله في فكر فيورباخ هو نتيجة لتجريد الإنسانية من سمات البشرية خالصة، ومن مميزات الجنس البشري ككل فهو يرى بأن البشر يحاولون تحقيق مثل عليا وصفات متتالية كاملة فيهم وهذه هي أمانيهم ونتيجة لصعوبة تحقيق هذا الأمر في أنفسهم وعدم استطاعتهم جعلها كينونة حقيقية، خلق الله كفكرة أو صورة تجسد هذه الصفات والمثل فيقول: **"حتى ولو لم تكن عندك أية فكرة عن الله فأنت لا تجهل أنه الوجود بلا حدود، الوجود اللانهائي في الزمان والمكان، وبالتالي لا تجهل أنه لكي تتصور الله ذهنيا يجب أن لا ننفي كل التحديدات وكل القيود، وكل ما يحيط بنا من حدود تحد الله المتناهية".** [1]

كما استشهد في كتابه ماهية الدين إلى تأكيد فكرة خلود الطبيعة من الإنجيل أيضا الذي يحمل في ثناياه أن الناس يفنون لكن الطبيعة خالدة وباقية إلى الأبد، هذه الفكرة تؤدي لا محال إلى القول بأن فيورباخ استنتج أن الإنسان توصل لفكرة الله أو مخلوق خالق للكون من خلال تأليهه للطبيعة. مما أدى إلى الوصول إلى فكرة ضعف الذات الإنسانية أو خصائص الإنسان الضعيفة أمام قوة الإله المطلقة. فقال: **"الإنسان قد ضيع الإله أمامه كنقيض لنفسه. الإله لانهائي، الإنسان كينونة محدودة، الإله كامل، الإنسان غير كامل، الإله أبدي، الإنسان زمني، الإله قادر على كل شيء، الإنسان ضعيف، الإله قدوس، الإنسان خاطئ، الإله والإنسان على طرفي نقيض: الإله هو الإيجابي بالمطلق، مجمل كل الحقائق، الإنسان سلبي بالمطلق يشتمل كل السلبيات"** [2]وهو في هذا القول يميز بين الإله والإنسان من جهة فو يحد نظرتنا للإله تلك النظرية المثالية له، والتي هي في نفس الوقت تقلل من قيمة الإنسان. ومن هنا يطرح فيورباخ هذه الفكرة

[1] لودفيغ فيورباخ، أصل الدين، تر احمد عبد الحليم عطية، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1991.ص 158.
[2] لودفيغ فيورباخ، جوهر المسيحية، ط1، تر جورج برشين، دار الرافدين، بيروت.1975، ص 89.

كمعضلة لا حل لها سوى بالرجوع إلى الدين حيث يزيل هذا التفريق بين الذات الإلهية والذات الإنسانية فيتمم قوله السابق الذكر بـ: **لكن في الدين يتأمل الإنسان بطبيعته الكامنة الخاصة.** [1]

لقد ربط فويرباخ صفات لله بصفات العقل وعليه فمن خلال رفضه لمطلقية العقل يتوصل لنفي فكرة الله وذلك من خلال رؤيته إلى التعريف التالي" **الله هو الكائن المستقل الذاتي، الذي لا يحتاج إلى أي كائن كي يوجد وبالتالي هو موجود من ذاته وبذاته** يقول فيه **ولكن هذا التحديد المجرد والميتافيزيقي ليس له هو أيضا معنى وواقع، إلا كتعريف لجوهر العقل، وهو يعبر فقط وببساطة أن الله كائن مفكر وذكي أو مع قلب الحدود أن الكائن المفكر هو وحده الكائن الإلهي**" [2] فعرض بذلك تصوراته المتعلقة بتجريد الإنسان من سمات البشرية خاصة ومن مميزات الجنس البشري ومحاولة جعلها كينونة حقيقية تحقق لهم مثل الكمال فيهم ولأنها لم تكن كاملة في البشر وضعوها في صورة الإله. ويظهر هذا التصور في أول إبداعاته تأملات حول الموت والخلود وفيه عرض فكرة المرآة، وتعني أن فكرة الله **مرآة Spiegel** تنعكس فيها صفات الجنس البشري إن نظرية المرآة عند فيورباخ، يجسد ويصور فيها حقيقة الاغتراب الديني الذي دفع بالفرد لخلق معبود أقوى منه، هذا المعبود وضعت صفاته من خلال الصفات الإنسانية الكاملة، وهو ما يراه فيورباخ سوى انعكاسا لصورة الإنسان، أو لما يريد أن يحققه الإنسان على أرض الواقع.

ولقد تفطن فيورباخ إلى أن قلب اللاهوت أو علم اللاهوت في حد ذاته ليصبح منفيا، وذلك يتجلى واضحا في فكرة الحلول، والتي يعتبرها فيورباخ أنها تؤدي لا محال إلى الإلحاد، -فالحلول إذا ما تمعن في محتواه الإنسان المفكر سيجده إذا ما قلب سيصير إلحادا لا محال- وهو يرى بأن اللاهوت قتل نفسه بنفسه حين أخذ بنظرية الحلول، وقد عرف فيورباخ مذهب الحلول بـ:" **هو مذهب الإله الواحد محملا محلول الألوهية المتعددة: الحلولية تحول الكائنات المستقلة المتعددة إلى محمولات أو أخبار لكائن واحد وحيد ومستقل هكذا، فقد حول سبينوزا الفكر، ماهية الأشياء المفكر والمادة، ماهية الأشياء الممتدة إلى محمولات للماهية، أي الله- الله شيء مفكر الله شيء ممتد**".[3]هنا يرجع فيورباخ الحلولية إلى بعض الفلسفات خصوصا الفلسفة السبينوزية منها والذي أقر في فلسفته أن الكائنات كلها الجامدة منها والحية هي كائنات محمولات للماهية بمعنى أن الله قد حل فيها كما أن فيورباخ كذلك قد أشار إلى أن الهيجلية كذلك

[1] لودفيغ فيورباخ، جوهر المسيحية، ص 89.

[2] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، تر إلياس مقرص، دار الحقيقة، بيروت ط 1، 1975، ص 230.

[3] نفسه، ص 190.

قد أقرت بهذه الفكر لكن مع اختلاف بسيط هو أن هيجل أضاف فكرة أن الوعي الذاتي محمولا للماهية خصوصا حينما أقر هيجل بأن وعي الله هو وعي ذات الله فيورباخ يقر أنه وبالرغم من هذا الاختلاف الطفيف بينهما إلا أن كلاهما قد تبنا مذهب الحلول، والحلول حسبه هو نفي اللاهوت وهي نتيجة حتمية للإلحاد إذا ما قلبناه فقد قال في المبدأ الثامن والتاسع على حد سواء: "**الإلحاد هو الحلول مقلوبا، الحلول هو نفي اللاهوت من وجهة نظر اللاهوت**". [1]

2-تقبله للدين:

لقد فرق فيورباخ بين اللاهوت والدين على أساس ان اللاهوت هو ذلك العلم الذي يعنى بالغيبيات والأمور الغيبية مبتعدا عن الواقع المحسوس، ولذا فقد رفض اللاهوت واهتم بالدين والذي وجد فيه المجال الوحيد الذي يجمع البشرية تحت تعاليم وقيم راقية تهتم بالإنسان وقضاياه ومشاكله

إذا اعتبرنا أن فلسفة الدين هي الميدان الذي يكشف فيه الاغتراب، فإنه هنالك خطان شائعان في الفكر الديني وهما: أنه هنالك اتجاه يرى في الروايات الدينية والأخبار والقصص حقائق تقابل شيئا في الواقع وهو ما تقترفه الفلسفة الوضعية وهي لا تفترق عن العامية الشعبية في شيء، أما الاتجاه الثاني هم من يرون في القواعد الإيمانية حقائق فلسفية يمكن البرهنة عليها بالعقل والمنطق وهو خطأ الفلسفة التأملية التي حولت العقائد إلى نظريات خاصة [2]وعليه ابتعدت الوضعية منها على الفلسفة فصار العقل ألعوبة، أما التأملية فابتعدت عن الدين من أجل الفلسفة.

أما فيورباخ فقد ذهب للتوفيق بينهما كالفكر المعتزلي، لأن الفلسفة والدين هما شيئا واحد مهما ظهر بينهما اختلاف، لكن موضوعهما واحد، لأن الوجود وجود واحد ولا داعي للتناقض والانفصال لأن التناقض لا يحصل إلا بعد الفصل بين الإيمان والعقل، فالتناقض لا يظهر إلا بعد الفصل بين الإيمان والعقل.

وقد وصف نظرة الفلسفة النظرانية في مبادئ فلسفة المستقبل في المبدأ الثامن بـ: "**اللاهوت العادي يجعل من وجهة نظر الإنسان وجهة نظر الله، الفلسفة النظرانية بالعكس تجعل من وجهة نظر الله وجهة نظر الإنسان أو بالأصح وجهة نظر الإنسان**"[3] ويستطرد ذلك بالقول التالي:" **إن الخصائص أو المحمولات**

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 190.

[2] حسن حنفي، دراسات فلسفية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة. ص 405.

[3] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 235.

الجوهرية للكائن الإلهي هي الخصائص أو المحمولات الجوهرية للفلسفة النظرانية" المبدأ التاسع. هنا فيورباخ يرى بأن الصفات الإلهية هي حتما صفات خلقتها الفلسفة النظرانية، مما يوصل بنا إلى القول أن هذه الفلسفات القديمة كانت عبارة عن مساند ومؤيد للاهوت، باعتبار أن المناهج التي طبقتها كانت دائما منصبة في قالب لاهوتي محض. ويبدو هنا فيورباخ في توفيقه هذا معتزليا في الفكر، وهذا الرأي الذي أكد عليه الدكتور حسن حنفي* حينما أكد على أن فيورباخ قد فسر اليد بالقدرة، والعين بالعلم العقل الطبيعي الذي يتسق مع نفسه ويتسق مع الطبيعة وليس العقل الخاص عقل الإيمان، العقل هو القاعدة العامة، والإيمان هو الاستثناء الخاص لذلك ارتبط الإيمان بعصر تاريخي معين، وبمكان محدد، وباسم خاص، التوحيد بين الإيمان والعقل يذيب الإيمان ويحيله إلى عقل فيتحول الخاص إلى عام. [1]هذا معناه أن فيورباخ قد قلب الفكر السابق المتداول، وحول الإيمان من فكرة عامة شاملة لفكرة خاصة خاضعة للعقل وهي فكرة استثنائية جزئية لأن التوحيد بين الإيمان والعقل يجعل من الإيمان فكرة خاصة تابعة لمنبعها ومؤسسها العقل، لأنه بالتالي هو الذي أنتجها وهي فرع من فروع هذا الأخير، وعليه فهو له صفات خاصة ومحددة له يختص بها هو – الإيمان – دون سواه. فمثلا الخطايا التي يقترفها الإنسان هي كذلك لأن مقترفوها آمنوا بأنها كذلك. والفكر هو من يحول مضمونها إلى عقل.

وإن تأملنا في هذه الأفكار الفيورباخية سنتوصل إلى أن فيورباخ قد درس الصور الدينية كحالة نفسية مرضية وهي حسبه عبارة عن اهتزاز شعوري وارتجاج في المخ وهلوسة واضطراب. محاولا تأسيس علما للأمراض أو علم وظائف الأعضاء كمقدمة لعلم العلاج والعودة إلى طبائع الأشياء، وأصولها ونشأتها وممارسة المنهج السقراطي "اعرف نفسك بنفسك" هذه الأفكار نجدها بالتحديد عند المحلل النفسي سيجموند فرويد في مؤلفه "مستقبل وهم" الذي عبر فيه على أن التراث الديني الثقافي يتوارث عبر الأجيال هو مشكلة سيكولوجية قائلا: **"إن هذا الوضع القائم هو في حد ذاته مشكلة سيكولوجية، مثيرة للفضول الشديد، فلا ريب أن الكثيرين منهم ساورتهم عين الشكوك التي تساورنا نحن الآن، لكن الضغط الذي كانوا يرذخون تحته كان أقوى من أن يجرؤوا على الإفصاح عنها، ومنذ ذلك الحين تغلب الكثير من الرجال على فراض**

* حسن حنفي من مواليد 23 فبراير 1935، مفكر وأستاذ جامعي مصري. واحد من منظري تيار اليسار الإسلامي، وتيار علم الاستغراب هو احد المفكرين العرب المعاصرين من أصحاب المشروعات الفكرية العربية. مارس التدريس في عدد من الجامعات العربية له عدة مؤلفات في فكر الحضارة العربية من اهم اعماله سلسلة موقفنا من التراث القديم، التراث والتجديد، حوار الأجيال، من النص الى الواقع، حصار الزمن. حنفي من مواليد 23 فبراير 1935، مفكر وأستاذ جامعي مصري. واحد من منظري تيار اليسار الإسلامي، وتيار علم الاستغراب

[1] حسن حنفي، دراسات فلسفية، ص 405.

عذاب الشـــكوك نفســـها، تلك الشـــكوك التي كان بودهم لو يخنقوها ويكتمون أنفاســـها لاعتقادهم بأن الإيمان واجب عليهم وفريضة".[1] إن غرض فيورباخ هو المعالجة للشفاء من الأوهام حول الماهية الحقيقية للدين بتعليم استعمال المياه الباردة للعقل الطبيعي، إحياء علم المياه البسيط القديم للفلسفة الأيونية على أرضية الفلسـفة النظرية وقبل كل شـيء على أرضـية الفلسـفة النظرية للدين، فالنظرية الأيونية القديمة ترى بأن أصـل الكائنات والأشياء هو الماء وبالتأمل في الطبيعة يزول الوهم وسيعرف الإنسان نفسه بنفسه –فكرة سقراط – فهو يحاول العودة للفلســـفة القديمة ويســـتفيد منها ويعيد الماهية الحقيقية للدين وذلك كبرهنة على أن الدين وجوهره هو الإنسان.

[1] فرويد سيجموند، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر. ص 37.

المبحث الثاني: فلسفة هيجل واللاهوت

لقد بلغ صدى الفلسفة الهيجلية في العصر الألماني الحديث ما لم تبلغه فلسفة أخرى، واذا اقرينا بالقول ان فيورباخ كان من اشـــد الفلاســـفة الناقدين للفلســـفات العقلية والمجردة والمثالية، علم اللاهوت...الخ فإن الفلسفة الهيجلية لم تسلم من وطأة هذا النقد الذي طال جل الفلسفات السابقة لكن الملفت في الموضوع ان فيورباخ قد ربط بين الفلسـفة الهيجلية وبين علم اللاهوت رافعا شـعاره الشـهير من لم يهجر فلسـفة هيجل لم يهجر اللاهوت.

1-نظام هيجل:

إن المذهب المثالي **Idéalisme**، مشتق لغويا من كلمة فكرة Edéa. معنى ذلك أن هذا المذهب يرتكز حتى من اشـــتقاقه اللغوي ذاته على الفكرة، هيجل لم يخرج عن هذا التعريف التقليدي الكلاســـيكي ولذلك اعتبره هو الأسـاس لكنه أضـاف إلى ذلك: إذا كان الفكر هو الأسـاس ذلك أنه الحقيقة النهائية لكل شـــيء ومعناه أيضـــا أن كل حقيقة لابد أن تكون فكرا، فما ليس فكرا ليس حقيقة أو بمعنى أكثر دقة ليس حقيقة نهائية ومن ناحية أخرى فإن الفكر لا متناه إذ لا يمكن أن يحده ســـوى الفكر، أعني أنه لا يحد إلا بذات، فهو محدود بذاته، وكل ما هو محدود بذاته فهو غير متناه، وهذا هو اللامتناهي الحقيقي-[1]. وبالمختصر نجد أن المثالية عند هيجل هي ذلك المذهب الذي يعتمد على فكرة أســاســية تقول أن الأشـياء والواقعية هي أشـــياء فانية ومتناهية وعليه فليس لها وجود حقيقي، أما الحقيقة فهي لا متناهية-الأفكار- وبذلك يتوصـــل هيجل أن الدين يشـــارك الفلســـفة في القول بأن الحقيقة لا متناهية وأن الحقيقة مطلقة. وبذلك يكون الدين يدعم الفلســـفة المثالية وقويها لأن الدين بصـــفة عامة يرى بأن العالم ليس هو الوجود الحقيقي وهو ليس نهائيا وغير مطلق فهو مجرد مظهر خارجي مزيف - أو زيف - مما يذكرنا بأسطورة الكهف عند أفلاطون.

وعليه فالله وحده هو الحقيقية المطلقة والنهائية وهو وحده الوجود المطلق الحقيقي ومنه نتوصـــل إلى أن مذهب هيجل يتألف من ثلاث معان رئيسية وهي:

1- الفكرة: (l'idée).
2- الطبيعة:(la nature) .
3- الروح: (l'ame).

[1] إمام عبد الفتاح إمام، دراسات هيجلية، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985، ص 15.

كل هذه المعاني الثلاثة تعود إلى معنى واحد وهو الفكرة، فالفكرة كما ذكرنا سابقا هي المطلق والمطلق حسبه هو الذات الكية التي تنظم كل شيء. وكل الأشياء ليست إلا تطورا ونموا ديالكتيكيا عن الفكرة الأصلية، وهذه الذات الكلية هي عينها "الفكرة أو التصور" عنده، والفكرة تعني الشمول أو الإدراك الشامل ومن هنا فالتصور لفظة تعني الشمولية والكلية وعلى هذا فالتصور الهيجلي هو الكلي الذي ينتظم كل تعييناته ويشملها في تطور ديالكتيكي. والفكرة هي المطلق الذي ينطوي على ثلاث مراحل في ثلاث لحظات هي: الوضع ونفيه ومؤتلف الوضع ونفيه، ويمكن التعبير عن هذه اللحظات كالآتي: موضوع، ونقيضه موضوع ومركب من الموضوع ونقيضه والمركب يتحقق عن طريق الرفع لكل من الموضوع ونقيضه. [1] ففلسفة هيجل قامت على النظام التالي: أولا إقراره بحقيقة أن كل فكرة هي حقيقة وما ليس بفكر ليس بحقيقة نهائية مطلقة والله كفكرة هو حقيقة مطلقة أما غيره من الكائنات والأشياء هي عبارة عن كائنات منتهية وفانية وليست بالحقيقة، والفكرة هي القلب النابض وقد جاءت على شكلي: الطبيعة والروح باعتبارها هي الكلية العامة الشاملة وهي التي تنمو عنها وتتطور منها الأشياء على شكل جدلي محض، والفكرة حسب هيجل تعني: المطلق، الكلي، الشامل، التصور وهي أساس مثلثه الجدلي الذي يتشكل من: موضوع

مركب يتحقق بالرفع لكل من الموضوع ونقيض الموضوع.

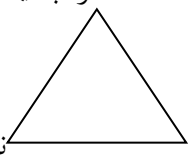

موضوع نقيض الموضوع

المركب= رفع الموضوع+ رفع نقيض الموضوع.

الفكر= نفي الوضع+ نفي مؤتلف الوضع.

2-قلبه للنظام الهيجلي:

لقد أكد فيورباخ في كتبه أن فلسفة هيجل تنطوي على تعارض بين الفلسفة والدين العقل والإيمان، كما نقد فيورباخ كذلك توحيد هيجل بين الفكر والمادة، الإنسان والعالم، عن طريق إرجاع كلية الواقع إلى الفكر المطلق، حتى أنه أكد على أنه من الضروري نقد فلسفة هيجل، فلا نستطيع إنجاز أية فلسفة حديثة حسبه قبل النقد التام للفكر الهيجلي: "**إن فلسفة هيجل هي تمثل تحقق وإنجاز الفلسفة الحديثة ولهذا**

[1] عبد الفتاح الديدي، فلسفة هيجل، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة. 1970، ص 17.

السبب فإن الضرورة والتسويغ التاريخيين للفلسفة يرتبطان قبل كل شيء بنقد هيجل".[1]وقد تم بالفعل بعكس وقلب النظام الهيجلي فحين يقول هيجل "الفكر" يقول فيورباخ "المادة" وهنا يقول فيورباخ "الإنسان" وليس الله هو الذي يستلب في الإنسان لكن الإنسان هو الذي يستلب في الله. وبهذا المعنى قلب النظام الهيجلي الذي يرى بأن الفكر سابق عن العالم وأن هذا العالم مصدره الأفكار، لكن فيورباخ على العكس من ذلك فقد أرجع من العالم والإنسان مصدرين للأفكار، ويلخص فيورباخ في صيغة يتبناها ماركس بحرفيتها في "نقد الحقوق الهيجلية" وضع المسند مكان المسند إليه، فالكائن هو المسند إليه والفكر هو المسند، وهذا معناه في نظره أن الفكرة انعكاس للعالم وليس العالم انعكاسا للفكرة. [2]

أما إذا عدنا إلى الانقلاب الذي وضعه ماركس على الفلسفة الهيجلية فهو انقلابا منهجيا أما فيورباخ فقد قلب النظام الهيجلي فانتقادات هذا الأخير ربطها ربطا مطلقا بالمثالية المطلقة بهيجل فلا نستطيع حسبه الابتعاد عن اللاهوت إذا لم نبتعد أو نهجر فلسفة هيجل المثالية. لأن هدف فيورباخ هو وضع نظرية إيجابية جديدة تتعلق بالإنسانية والإنسان كموضوع ومحمول في آن واحد، ولا سواه موضوع للدراسة، فلسفة تبدأ من الإنسان وتنتهي إليه. لكن المعضلة التي واجهته هنا هو الأفكار الفلسفية التي تتعلق بالفلسفات الحديثة ولعل الفلسفة الهيجلية تعتبر القلب النابض والمدعم لهذه الفلسفات الحديثة، لذا فلسفة هيجل تعتبر من أكثر الفلسفات التي طالها النقد الفيورباخي، فقد ربطها لحد ما باللاهوت موضحا ذلك بقوله الشهير "**من لا يتخلى عن فلسفة هيجل لا يتخلى عن اللاهوت**". لأن هذه الفلسفات النظرية قد اكتست حتما بالثوب اللاهوتي، ولهذا يصف فيورباخ هذه الفلسفات بأنها لاهوت نظري فهي إذن لاهوت محض وليست فلسفة، لكن هذا اللاهوت يتميز عن اللاهوت العادي في أنه ينقل إلى هذه الدنيا يوقعني يحدد ويحقق الماهية الإلهية التي نفاها اللاهوت العادي في الما وراء أو الميتافيزيقيا بسبب الخوف والجهل. [3]

إن النقد الفيورباخي للفكر الحديث طال الفكر الهيجلي على وجه الخصوص على أساس أن فلسفة هيجل تعتبر من أكثر الفلسفات المثالية حدة وأكثرها توجها للمثالية لأن فلسفة هيجل قد أرجعت هذا العالم والهنا إلى الما وراء من جديد، وهنا حمل فيورباخ الفلسفة النظرية مسؤولية وضع العقل محل الله، كذلك أن صفات الله هي نفسها صفات العقل يقول "**الفلسفة الحديثة مشتقة من اللاهوت، ليست هي نفسها**

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 264.

[2] روجي جارودي، كارل ماركس، تر جورج طرابيشي، الطبعة الأولى، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1980، ص 28.

[3] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ط1. دار أمواج، لبنان،1994. ص 251.

سوى حل وتحويل اللاهوت إلى فلسفة، وبالتالي إن حذف وتحقيق الجوهر المجرد والعلياني لله ما كان يمكن أن يتدخلا إلا على نمط مجرد ومتعال لتحوي الإله إلى عقل"[1]. وهنا إقرار صريح على ان الفلسفات الحديثة لم تكن حسبه سوى اعمال لإعادة النظر في علم اللاهوت فهذه الفلسفات رأت بأن العقل لا متناه وكذلك الكائن الإلهي العقل لا يحتاج في وجوده إلى غيره والكائن الإلهي أيضا، العقل كلي القدرة والله كذلك هذا العقل هو عقل إنساني بالنسبة للفلسفة النظرية لكنه مجرد لأقصى حدود.

فالله هنا ككائن مجرد وغير إنساني ما هو إلا ماهية العقل لكنه اللاهوت عبر عنه كشكل كائن متميز ومستقل عن العقل، وقد عبر فيورباخ عن ذلك بأن الله هو الذي خلق الإنسان على صورته وإنما الإله في صورته، لكنه يؤكد أيضا على الضرورة التاريخية لتخطي المرحلة اللاهوتية والمماثلة لماهية العقل مع العقل نفسه، وبذلك يكون هدف التاريخ قد تغير فلقد كان حسب هيجل تحقيق الله في الإنسان، أما في نظر فيورباخ هو تحقيق الإنسان في الإنسان عندما يكف هذا عن إسقاط نفسه في الله وهنا يتم القلب الجذري للرؤية الهيجلية التي ابتدأت من الله لتصل للإنسان، لتصبح مع فيورباخ تبدأ من الإنسان وتنتهي إليه، عندما يتوقف الإنسان عن الإسقاط أو يبتعد الانعكاس المرآتي، أو حينما يتشاف من الاغتراب. إن فيورباخ لم ينحى منحى الهيجلين اليساريين الذين حاولوا آنذاك إصلاح الفلسفة الهيجلية، بل كان يبحث عن مصدر التناقض في هذا الفكر، وقد وجده في الأساس الذي قام عليه منطق هيجل.

إن المنطق الهيجلي قائم على مقولة الوجود المجرد التي هي حسب هيجل ليست مفترضة بل مستنبطة وإن كان السيستام الهيجلي يدعي أنه استنبط كل شيء، فقد توصل لا محال إلى نتائج متناقضة ومستحيلة وتناقض وقائع التجربة العادية، وعندها يجب البحث في مقدمة الاستنباط وهي "الوجود الخالص" التي بدأ منها، لكن البداية في كل مجال يفترض أن تكون محددة ونسبية ومن ما وصل إليه الله العلم في زمنها فيجب أن تبدأ بفرضية. وعليه وجد فيورباخ أن هيجل انطلق من النظريات الفلسفية الموجودة بل افترض فلسفة فشته وفلسفة شيللنغ وانطلق منهما تحديدا وما أضافه عليهما لا يتعين الشكل السيستام فهو حدد وخصب هوية شيللنغ المطلقة ببذور مقولة "الأنا" الفيشتية، فأصبحت الفكرة عند هيجل، كما كان فيشته قد انطلق من فلسفة كانط معتبرا أنها منطلق صحيح ولا ينقصها إلا أن توضع في سيستام.[2]

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 263

[2] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ص 154.

ففيورباخ توصل إلى أن هيجل عاد للوراء لتشيللنغ وفشته وكانط وأحاط هذه الفلسفات بشكل كما أنه وضعها في قالب سيستامي لقد قطع فيورباخ هنا الصلة مع كل ماله علاقة له مع المنهج المثالي وأخيرا استحوذ عليه، بقوة لا تقهر، الإدراك كون "الفكرة المطلقة" الذي سبق وجود الأرض عند هيجل "الوجود المسبق للمقولات المنطقية" قبل ظهور العالم، ليس سوى بقية خيالية من الاعتقاد بوجود خالق من عالم الغيب وإن عالم الأشياء المدرك بالحس والذي تنتمي إليه نحن أنفسها هو العالم الوحيد الواقعي، إما إدراكنا وتفكيرنا، فمهما يبدوا فائقي الإحساس فإنهما نتاج جهاز مادي جسمي هو الدماغ، ليست المادة نتاج الروح، بل الروح نفسه ليس سوى أعلى نتاج للمادة فهذه طبعا مادية بحتة، فتفطن فيورباخ لهذه النقطة وقاد صرح في جل اراءه على ان: المادية بالنسبة له هي اساس بناء الكنه الإنساني واساس المعرفة الإنسانية.

لكن فيورباخ هنا يخلط بين المادية كمفهوم عام عن العالم يقوم على فهم معين للعلاقة بين المادية والروح، وبين ذلك الشكل الخاص الذي وجد فيه هذا المفهوم عن العالم في مرحلة تاريخية، معينة هي القرن الثامن عشر، وهو فضلا عن ذلك يخلط بين هذه المادية وبين ذلك المبتذل العامي الذي تستمر به مادية القرن الثامن عشر في عقول علماء الطبيعيات والأطباء والذي نادى به في القرن السادس عشر المبشرون المتجولون. ولكن المادية شأنها شأن المثالية، قد مرت بمراحل من التطور فمادية القرن المنصرم كانت مادية ميكانيكية والإنسان بالنسبة لماديي القرن الثامن عشر كان عبارة عن آلة كما الحيوان –ديكارت– أما النظرة الضيقة الخاصة لها فهي تكمن في عجزها عن فهم العالم بوصفه حركة وتطور مما يتفق مع العلوم الطبيعية آنذاك وطريقة التفكير الميتافيزيقي أي المنافية للديالكتيك، لكن الحركة في ذلك العصر كانت تدور دائما في حلقة واحدة وعليه فيه تسفر عن النتائج نفسها[1] ففيورباخ حسب انجلز قد تناسى تلك المراحل التي مرت بها المادية من تطور عبر التاريخ، خصوصا عندما ساوت الإنسان مع الحيوان، وعندما كانت المادية تدور في حلقة مفرغة من الأبحاث والاستفسارات والتي دائما كانت تسفر لها النتائج نفسها. وعليه ففيورباخ حسبه لم يستطع الفصل بين الماديتان مادية فهم العلاقة بين العالم والروح، ومادية فهم العالم في مرحلة تاريخية ما وخير دليل يستنجد به أنجلز هنا هو مادية القرن الثامن عشر أو المادية الميكانيكية.

[1] انجلر، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، تر الياس شاهين، دار التقدم، لبنان. ص 18.

المبحث الثالث: حقيقة الثيولوجيا

لقد ركز فيورباخ في دراساته على علم اللاهوت أكثر من اللاهوتيين أنفسهم لكن تركيزه هذا جاء مخالفا لاهتمامات اهل المجال، فقد حاول هذا الأخير كشف الحقائق الخفية وبذلك نجده قد رسم خطة منهجية محنكة للإطاحة بهذا العلم الذي طالما كان يصنف في المرتبة الأولى ابان ذلك العصر.

1-منهجه في كشف حقيقة اللاهوت:

من المعلوم أن فيورباخ في دراساته للديانات أو اللاهوت ومشاربها، ركز على دراسة النصوص القديمة متتبعا في دراسته هذه المراحل التاريخية لكل حقبة تاريخية. وقد فسر هذه الظاهرة-الاعتقاد بالدين أو اللاهوت-كظاهرة مرضية نفسية عبر عنها بالاغتراب معتمدا في ذلك على دراسة معمقة للنصوص الأصلية القديمة، فهي حسبه الوحيدة التي تستحق التأمل لأنها هي وحدها من تكشف عن حقيقة المسيحية. ومن خلال منهجه هذا توصل إلى أن الثيولوجيا ما هي إلا أنثروبولوجيا مقلوبة، وأن الصفات التي يصف اللاهوتي بها ما هي إلا صفات إنسانية وقد عبر على ذلك بقوله **"كل تحديدات الله والله المحدد بالضرورة وإلا فهو لا شيء وهو غير قابل لأن يمثل في تحديدات خاصة إما بالطبيعة وإما بالإنسان أو مشتركة للاثنين"**.[1]

وهنا الإنسان اللاهوتي وفي تحديده للماهية الإلهية هو يحدد في ذاته وصفاته أو يحدد في ماهية الطبيعة، ويعكسها عكسا مرآتيا ليصف بها الله يحاول فيورباخ أخذ النصوص القديمة عن الله وإعادة تحليلها تحليلا نفسيا وجوديا ليكشف عن المضمون الإنسان لهذه النصوص، ويقوم بإعادة تفسير لها، وذلك بإعادة بناء الموقف الماضي على أساس من الموقف الحاضر.[2] وهو ما قام به بولتمان هيدجير وحتى ديلتاي – التجربة المعاشة – في الكشف عن الواقعة الإنسانية الحية من خلال تحليل النصوص الدينية القديمة، وعليه نجد أن فيورباخ حاول جاهدا ثمرة هذه المحاولة، مستنبطا أنثروبولوجيا من اللاهوت أو الثيولوجيا.

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 248.

[2] حسن حنفي، دراسات فلسفية، ص 407.

إن القلب المنهجي الذي قام به فيورباخ ليحول الثيولوجيا إلى أنثروبولوجيا مر على مراحل وهي:

1- تحديده للظاهرة المرضية النفسية مر به الإنسان عبر التاريخ: وذلك من خلال دراساته التاريخية عن المراحل الدينية التي مرت بها البشرية خصوصا الطوطمية من خلال عرضه للحضارات ودراستها وتبيان كيف تغلغلت الظاهرة الدينية فيها. إلى أن توصل إلى فكرة الاغتراب كحالة مرضية أدت حتما إلى ظهور علم اللاهوت.

2- المرحلة الثانية تجلت في تشبيه الإسقاط ومن يسقطه الإنسان من صفات على الله بانعكاس المرآة كتشبيه بليغ يوضح فيه كيف أن الإنسان أراد أن يحقق صفات ما، ولما كانت صعبة المنال بالنسبة إليه خلق كائنا أقوى منه ليصب أجدر وأحق بها.

3- المرحلة الثالثة وهي من خلال تحديده لبعض الفلسفات القديمة على والتي كانت هي الأخرى من أهم العوامل المساعدة على ظهور وسيطرة اللاهوت على الإنسان، خصوصا هيجل وفلسفته، باعتبار هذه الأخيرة من أقوى الفلسفات وأشدها على الدفاع عن الدين.

لكنه خرج من هذه الإشكالية من خلال توصله لفكرة أن الثيولوجيا ما هي إلا أنثروبولوجيا مقلوبة.

2-حقيقة الأنثروبولوجيا الفيورباخية:

كما ذكرنا سابقا أن المنهج التحليلي الذي اتبعه لودفيغ في دراسة النصوص اللاهوتية القديمة توصل به إلى أن انثروبولوجيا ما هي إلا أنثروبولوجيا فكان له شرف تأسيس أنثروبولوجيا غرضها الفهم الإنساني واستعمال لغة إنسانية محضة، لكن مع ذلك لا نستطيع إنكار أن الأنثروبولوجيا قد وجدت قبله ومنذ الفكر اليوناني وصولا إلى أستاذه هيجل لكننا لا نستطيع التمييز بين السابقة والفيورباخية قبل أن نعرض كلاهما:

1- الأنثروبولوجيا "العهد اليوناني إلى هيجل": لقد كانت في المقام الأول عبارة عن أنثروبولوجيا ميتافيزيقية تنطلق وتدول حول العقل وحول كون الإنسان كائنا عاقلا تتحدد ماهيته بالعقل، الذي يعد المبدأ ينطلق منه ويهتدي به في حياته والذي كان يمثل في نفس الوقت الجانب الذي يمثل إنسانية الإنسان ولكن هذا المنطلق التقليدي. [1]

[1] أحمد عبد الحليم عطية، فيورباخ ماهية الدين، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر، القاهرة. 2007، ص 117.

هنا نجد أن هذه الأنثروبولوجيا اهتمت بالعقل الإنسان وقدرته، فاعتبروا أن إنسانية الإنسان لا تتحقق إلا من خلال العقل لا غير، كون العقل أساس ومبدأ الهداية وفهم الحياة وهو الوحيد القادر على الرفع من قيمة الحياة الإنسانية وخير مثال على ذلك فلسفة أفلاطون.

2- أنثروبولوجيا فيورباخ: بعد موت هيجل ظهرت نزعات بارزة أفقدت العقل والمعقول فاعليتهما ودورهما في فهم اغوار الحياة الإنسانية، فصارت هذه القاعدة-عقل-محل تردد وتأرجح وغموض بعد أن كانت دوغمائية قطعية عند الفلاسفة السابق ذكرهم، بدءا من الفكر اليوناني، هذا التذبذب والتردد في الأخذ بالعقل كالمبدأ الأول والأصلي في دراسة الإنسان، ظهرت بداياته في القرن التاسع عشر، خصوصا مع نهاية هذا القرن وظهور ملامح فلسفة جسدية مادية تثور على العقل والروح وتجعل من الجسد الإنساني محور اهتمام وانشغال الفلسفة، حيث سخرت هذه الأخيرة تساؤلاتها حول الجسد الإنساني والإنسان بصفة عامة محاولة إعطاء حلول تعود بالنفع على الإنسان. هذا الاتجاه الذي عبر عنه لودفيغ فيورباخ وبشدة خاصة حين إعلانه عن تحويل الثيولوجيا لأنثروبولوجيا وإنكاره للماورائيات وعودة للجسد كموضوع دراسة ومهمة للفلسفة.

فهنا نجد فيورباخ قد نقد كل الفلسفات الشائعة في عصره والتي أخذ بها اللاهوتيون كحجة دامغة للدفاع عن الدين وعن المواقف الزائفة للإنسان. فقد هاجم الفلسفة التأملية التي ابتلعت الدين، وقضت على خصوصيته لحساب الفكر، كما هاجم الفلسفة الوضعية كذلك. وقد ضرب الضربة القاضية حين وصف عصره بعصر النفاق، الذي زايد على الإيمان بلسان العلم، وكما قد وصف المجتمع بمجتمع يقلب الحقائق. هذا المجتمع الذي يعتبر فيه كل من يقول الحقيقة وقحا، سيء التربية عديم الأخلاق، وأصبحت الحقيقة فيه هي اللاأخلاقية، واللاأخلاقية هي النفاق الذي يدعي إثبات المسيحية، اللاأخلاقية هي النفي الحقيقي للمسيحية، النفي الذي يعبر عن نفسه كنفي هو التلاعب التعسفي بالمسيحية ويدعي إثباتها. [1]

إن هذا المجتمع قد عكس المفاهيم وقلب معانيها، فكل ما هو أخلاقي صار غير أخلاقي وكل ما هو غير أخلاقي صار يعبر عن الأخلاق، هذا القلب المفاهيمي وعكس الأضداد لم يوجد هكذا لوحده أو من قبيل الصدفة بل خلق من طرف أياد خاصة خفية غرضه خدمة اللاهوت لا غير فصار العلم والفلسفة يدان يساعدان اللاهوت لا غير، وحتى تساؤلاتهما سخرا من أجل إثبات أن اللاهوت حقيقي فقلبت الحقائق والمفاهيم من أجل خدمة هذا الغرض بمعنى خدمة اللاهوت ففي هذا الوقت الذي قلبت فيه الحقائق وغيبت

[1] حسن حنفي، دراسات فلسفية، ص 407.

فيه المفاهيم، ظهر لودفيغ فيورباخ، خاصة بمؤلفه "**جوهر المسيحية**"، سحق بضربة واحدة هذا التناقض، معلنا من جديد وبكل صراحة، انتصار المادية، فالطبيعة توجد مستقلة عن كل فلسفة، فهي الأساس الذي نمونا عليه نحن، الناس، نتاجها أيضا وخارج الطبيعة والإنسان لا يوجد شيء، أما الكائنات العلوية التي ولدت من مخيلتنا الدينية فليست سوى انعكاس خيالي لوجودنا نحن، وهكذا فإن الترقية قد رفعت "والمنهج" قد نسف وألقي جانبا، والتناقض قد حل بمجرد اكتشاف واقع أن هذا التناقض لا يوجد إلا في المخيلة.

لقد بحث فيورباخ في فلسفته عن العالم الحي وليس عن العالم الميت الجامد الذي لا وجود له ماديا، فطال باحثا عن الحقيقة ووجد أن الحقيقة التي يبحث عنها الإنسان ومنذ وجوده على الأرض هي الإنسان نفسه، فالحقيقة هي الإنسان لا غير، فرفض العقل والمجرد والفكر وغيرها من أفكار الفلسفات السابقة وغيرها بالإنسان والجسد وقد عبر عن ذلك قائلا: "**في حين أن الفلسفة القديمة كانت تبدأ بالقضية، أنا كائن مجرد، كائن محض مفكر، جسدي ليس ملك لجوهري الفلسفة الجديدة بالعكس تبدأ بالقضية، أنا كائن واقعي، كائن حسي، نعم جسمي في جملته هو أناي، جوهري عينه.**" [1] فهو هنا يغاير تماما الفلسفة القديمة التي ابتدأت بالفكر، ورأته أساسا للمعارف وتستبدل ذلك بالإنسان أو بالأحرى الجسد.

ومنه نستخلص بان فيورباخ قد بدا دراساته الفلسفية كمحاولة نقدية لبعض الفلسفات السابقة عنه مؤيدا لبعض النقاط فيها ورافضا لأغلبها، فنجده قد حاول الابتعاد عن تلك النظرة الميتافيزيقية واللاهوتية وتلك التجريبية المادية المحضة في الدراسة الفلسفية على وجه التحديد محاولا بذلك الارتقاء بالذات الانسانية محددا طبيعتها وكنهها ليصل بعد ذلك الى القول بان الفلسفة عليها ان تأخذ بعين الاعتبار ان الذات الانسانية حاملة في طياتها ثالوثا روحانيا مميزا وهو الارادة الوجدان والعاطفة.

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 299.

الفصل الثاني: تأسيسه للأنثروبولوجيا

من الواضح والمعلوم أن فيورباخ قد رفض اللاهوت ودحضه في جل مؤلفاته خصوصا –جوهر المسيحية– هذا النقد والرفض طبعا لم يكن من أجل النقد فقط، بل كان عبارة عن هدم لفكر سابق من أجل تأسيس فكر جديد، وهو بطبيعة الحال رد الاعتبار للإنسان وجعله محور العملية الفلسفية وأساسها

المبحث الأول: أنثروبولوجيته الفلسفية

بعد النقد الذي وجهه فيورباخ للفلسفات السابقة عنه بصفة عامة وعلم اللاهوت بصفة خاصة مقدما بذلك بديلا وهو انثروبولوجيا فلسفية ذات طابع انساني واقعي يعيد بها الوجهة من المجرد للملموس ومن الواقعي للمطلق

1– نزعته الحسية والواقعية.

من المعروف أن أنثروبولوجيا فيورباخ تتأسس من خلال نزعته الحسية كما أن هذه الأنثروبولوجيا أتت أيضا كثمرة لمذهبه الطبيعي، فالفلسفة الفيورباخية تقوم من الإنسانية والبشرية بصفة عامة والإنسان بصفة خاصة، وبذلك حاول جاهدا تعديل الفلسفة وإصلاح قضاياها للواقع المعاش أي بمعنى من الكل العام الى الخاص، ومن المجرد والميتافيزيقي إلى الواقعي المحسوس الملموس.

وهنا يأتي مشروعه لإصلاح الفلسفة، وتحويل وظيفتها لتعود للإنسان الذي بدأت منه وأتت من أجله وخدمة له، ويكمل مشروعه هذا في مؤلفه مبادئ فلسفة المستقبل، لأنه يرى بأن المحاولات الإصلاحية التي سبقته كانت ودائما تعود إلى النقطة المجردة وتبعد الإنسان عن دائرة التجديد، فيقول معلنا في إحدى مبادئه: "**إن محاولات الإصلاح التي حصلت حتى الآن في الفلسفة تتميز كثيرا أو قليلا عن الفلسفة القديمة حسب النوع فقط لا حسب الجنس، كي توجد فلسفة جديدة حقا أي مستقلة وتستجيب لحاجة البشرية والمستقبل، من الضروري ضرورة مطلقة أن تتميز عن الفلسفة القديمة حسب الجوهر**".[1] هنا نجده يريد من الفلسفة الابتعاد عن المثالية التي لا تخدم الإنسان بشيء وأن تكون الفلسفات كلها في خدمة الإنسان مستجيبة لمطالبه وقضاياه وأن يصبح الإنسان هو الموضوع الأول والأخير لها. لذلك ستهتم الفلسفة الجديدة–

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 236.

الفيورباخية –بالكائن الإنساني وتنظر إليه كما هو ليس بصفته كائنا مفكرا فقط، وإنما بكونه كائن موجود واقعيا وماديا على أرض الواقع.

وقد حدد فيورباخ نظرته لفكرة الواقعي والواقعية في المبدأ رقم 32 على النحو التالي: "**الواقعي بواقعيته، الواقعي كواقعي، هو الموضوع الواقعي للحواس: المحسوس حقيقة واقعية، كيفية حسية كلها شيء واحد وحيد، وحده الوجود الحسي وجود حقيقي وواقعي، وحدها الحواس وليس الفكر لذاته نستطيع أن نعطي موضوعا مفهوما بمعناه الحقيقي، الموضوع المعطى مع الفكر أو المماثل للفكر ليس سوى الفكر**"[1] فعلينا التفكير بطريقة التعامل مع كل ما هو واقعي ملموس لا غير، والفلسفة ما عليها سوى أن تغير منحى اهتمامها وتوجه الإنسان باعتباره موجود واقعي بواقعيته. على أساس ان الانسان يمتلك الحواس وهي التي منحته صفة الموجود بواقعيته وبهذا تستطيع ان تعطينا المفهوم الحقيقي للظواهر المحيطة بنا لان الحواس وحدها هي التي تلامس الحقائق وليس الفكر وحده، ولهذا نجدها هي من تمدنا بذلك المعنى الأصلي للحقائق باعتبار انها المصدر الأول الذي يتلقاها.

لقد عبر فيورباخ عن ذلك المبدأ الهام والأساسي الذي وجه التطور الفلسفي بعد انهيار المثالية وصار الجميع يفترضونه ضمنيا دون الحاجة إليه أو التصريح به هو أن الإنسان يمثل الموضوع الحقيقي للفلسفة لأنه أقرب شيء إلينا ولأننا نلمسه مباشرة في أنفسنا، وهذه المباشرة تقوم على الحس والحساسية لا على الفكر والمعرفة كما تصور ديكارت.[2] فنحن نحس بأنفسنا ونلمس ذواتنا دون حاجتنا إلى معرفة ذلك ومن دون أن نفكر في ذواتنا، فنحن موجودون، ماديا وواقعيا وهذا الوجود لا يحتاج إلى إثبات أو تفكير، لذا فعلى الفلسفة أن تبتعد في البحث عن ماهية الوجود وحقيقته وأصله، لأنه موجود فعليا، وأن تعطى الأولوية للإنسان وتجعله محورا لها. فوجودنا مرتبط بالجانب المادي فقط، لأنه وببساطة نحن نلامسه واقعيا بحواسنا دون تفكير ولا تأمل نحن نشعر بذلك ونتيقن من وجودنا هذا.

حقيقية أن فيورباخ أرجع منحى التفكير الفلسفي من المجرد إلى الواقعي والمادي الملموس، وأعاد للإنسان أهميته، كما أعطاه نصيبه وحقه المشروع من حصة التفكير الفلسفي، لكنه لم يركز على إنتاج الإنسان وطاقاته التي يجب أن تحول كذلك إلى موضوع مادي ملموس، وهذا ما ذهب إليه **كارل ماركس**

[1] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ص 281.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 62.

حينما قال:" **فيورباخ يريد أشياء حسية، متميزة حقا عن مواضيع الفكر، لكنه لا يعتبر النشاط الإنساني نفسه كنشاط موضوعي، ولهذا نراه في جوهر المسيحية، لا يعتبر إنسانيا سوى النشاط النظري، أما الممارسة فهو لا ينظر إليها ولا يحددها إلا في صورتها اليهودية المبتذلة، ولهذا نراه لا يدرك أهمية النشاط الثوري، النشاط العملي، النقدي**".[1]وهنا فمشروع فيورباخ الفلسفي حسب كارل ماركس هو مشروع غير مكتمل، حيث أنه بتر نظريته حينما لم يربطها بالعمل الملموس. حقيقة ان فيورباخ قد غير مسار الفلسفة فبعد ان كانت تتناول في قضاياها الجوانب المثالية والميتافيزيقية صارت معه تبحث في الأصل الذي جاءت من اجله الا وهو البحث في قضايا الانسان ومشاكله ورغباته الا انه لم يكمل مشروعه هذا بوضع أسس ومبادئ يسير وفقها هذا الانسان لمعالجة هذه القضايا والمشاكل، وبهذا ففلسفة فيورباخ ينقصها الجانب التطبيقي العملي لان الفلسفة ان نقصتها الممارسة ستبقى حتما مبتورة لا تستطيع المضي قدما.

وهذا ما أصرح به فيورباخ بلسانه ليؤكد على ما قاله ماركس فنجده في مقدمة الطبعة الأولى من أعماله الكاملة يتحدث عن نفسه بضمير المخاطب بدلا من ضمير المتكلم فيقول في ذلك" **ها أنت قد أبرزت طريقة في الرؤية وفي العرض محسوسة ملموسة، وفي كل مجال ربطت ما كان مجردا بما كان محسوسا، وما لم يكن محسوسا بما هو محسوس، وما كان منطقيا بما كان أنثروبولوجيا، في الماضي كنت تعتقد بأن الحقيقي ينبغي أن يكون حاضرا وواقعيا والآن ها أنت تقول في انتظام منطقي معاكس أن الواقعي والمحسوس والإنساني هي وحدها التي تشكل الحقيقي**".[2] ففيورباخ طالما كان يؤكد على ضرورة إرجاع الفلسفة من الجانب التجريدي إلى كل ما هو محسوس وكل ما لم يكن محسوسا أو كان ميتافيزيقيا بما هو عيني، وقلب كل ما هو منطقي بما هو أنثروبولوجي فهو نظام معكوس وهو عين الحقيقة الفلسفية. لكنه لم يتمم مشروعه هذا بوضع خطه منهجية تخص الجانب العملي التطبيقي، وهذا ما يحتاجه الانسان ومنذ ان وجد على هذه المعمورة، يحتاج الى خطة تطبيقية عملية يستفيد منها حتى يستطيع الوصول الى غاياته المنشودة.

[1] هنري آرفون، لودفيغ فيورباخ، ط1، تر ابراهيم العريس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان. ص 121.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 116.

2- الإنسان أساس دراسته الفلسفية:

إن الفلسفة لا تستطيع أن تطبق فكرة العودة إلى ما هو واقعي ومحسوس إلا من خلال فهم إنساني واستعمال لغة إنسانية. وإذا كان التفكير والكلام والفعل بطريقة إنسانية ليس معطى إلا للأجيال القادمة فإنه علينا اليوم أن ننتشل الإنسان مما هو غارق فيه وكانت مبادئ فيورباخ ثمرة لهذه المحاولة، مستخرجة من المطلق واللاهوت الثيولوجي نتيجة حتمية، فلسفة الإنسان الأنثروبولوجي. وقد أسس ذلك ومهد لهذه الفلسفة الأنثروبولوجية البعيدة عن التأمل السماوي من خلال نقد المسيحية من وجهة نظر مادية، أن أنه أظهر أن تصور الحاجة إليه هما إسقاط سماوي للواقع الأرضي للإنسان، الإنسان من واقعه المحسوس الطبيعي.[1]

وقد دعم فيورباخ برهانه معتبرا ان الفلسفة الهيجلية المثالية هي الشكل الأخير اللاهوت وقال بأن الفلسفة التأملية هي اللاهوت الحقيقي، ومن خلال قلبه فرض على الفلسفة أن تتطابق من الطبيعة لا من الفكرة وعلى وجه الخصوص الحواس كمصدر اتصل الإنسان مع الطبيعة فيقول: **"إن الواقعي المنظور إليه في واقعه الحقيقي هو الواقعي، بوصفه موضوع الحواس أي المحسوس، وفارق في الهوية بين الحقيقي والواقعي والمحسوس والموضوع لا يكون معطى حقا إلا عن طريق الحواس"**.[2] فلكي نفرق بين الحقيقي والمحسوس والموضوع علينا الاستنجاد بالحواس لا غير فهي الوحيدة حسبه القادرة على التمييز والتفرقة بينهم وهي أيضا من تستطيع تحديد هويتهم ومفاهيمهم، باعتبار انها هي من تلامسهم مباشرة دون وساطة معطى آخر، إن فلسفة فيورباخ الأنثروبولوجية أو ما كانت تسمى حسبه بالانسانولوجيا موسعة جدا وتدرس الإنسان من مختلف جوانبه، بحق يريد فيورباخ توسيع السيكولوجيا إلى انسانولوجيا بما أن الإنسان ليس فقط نفسا أو وعيا بل أيضا وأولا كحيوان وطبيعة، فهو حيوان بمادته وبيولوجيته يحيا ويتنفس وله مطالب ورغبات بيولوجية وفي نهاية المطاف يموت ويفنى، كما انه طبيعة لأنه يعي وجوده هذا ويحس بوجدانه

لذا فإن إنسانولوجيا فيورباخ ليست سيكولوجيا علم النفس فقط بل تتضمن أيضا الفيزيولوجيا والفيزياء.[3] فقد تناول أنثروبولوجيته هذه من عدة جوانب مختلفة وعلوم متعددة، كل هذه العلوم تعتبر علوما مادية طبيعية تنطلق من الواقع المادي المحسوس وتتخذ من الكائنات الحية قلبا لمواضيعها. إن العلوم التي تدير

[1] روجي جارودي، كارل ماركس، ط1.تر جورج طرابيشي، دار لبنان للطباعة والنشر، لبنان،1980. ص 32.

[2] نفسه، ص 33.

[3] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 33.

نشاط الإنسان تدحض دحضا قاطعا المزاعم المثالية النظرية عن الفكر، وعن الروح العامة، وخاصة الفيزيولوجيا، حيث تبين العلاقة العضوية التي تربط الفكر بما يجري في الجسم من عمليات مادية، بالإدراك الحسي للعالم الخارجي، فالإنسان لا ينفصل عن الطبيعة، ولذا كان من الخطأ معارضة الطبيعة بعالم الإنسان الروحي كواقع قائم بذاته أعلى منها وأسمى يقول في ذلك: **"إن الفلسفة الجديدة تجعل من الإنسان، بما في ذلك الطبيعة كأساس له موضوع، وموضوع الفلسفة الوحيد الأسمى والأشمل فتجعل من الأنثروبولوجيا، بما في ذلك الفيزيولوجيا علما شاملا"**.[1] هذا ما دفع بفيورباخ على بناء ووضع نظريته المادية عن الإنسان استنادا من تعدد العلوم. قد سبق فيورباخ هنا تلك المدارس المعاصرة التي توصلت بعد دراسات معمقة الى ان الانسان عبارة عن مزيج بين المادة والفكر هذا المزيج خلق منه كائنا يختلف عن بقية الكائنات الحية الأخرى، فهو يشبه الدواب في الجانب البيولوجي المادي الا انه يختلف معها في جانب آخر هذا الجانب هو السر العجيب الذي تميز به الانسان عن غيره، وهو الفكر، الوجدان، العاطفة.

ولعل هذا ما لاحظه أنجلز في أنثروبولوجيا فيورباخ فوجد أنها بالأخرى تضم العديد من العلوم: فيزيولوجيا، فيزيولوجيا حواس، فإنسان فيورباخ حسبه هو نوع، حب، بيولوجيا وأخلاق، مما يدفعنا للتأكيد على أن فلسفة فيورباخ تقوم على فكرة أن الإنسان هو أساس الدراسة، هو ومن جميع جوانبه فهذه هي المهمة الأسمى والأرقى للفلسفة. إن أنثروبولوجيا فيورباخ لا تؤول إلى مجرد طرح وحل معين للمسألة الفلسفية الأساسية فمضمون المبدأ الأنثروبولوجي وهدفه الأساسي يقوم عنده على التفسير العلمي للوعي الاجتماعي الذي يرى فيه انعكاسا لماهية وجوهر الإنسان ولكن تتمثل في الإحساس.[2] حيث أكد في مؤلفه مبادئ فلسفة المستقبل على أن كان شغله الدائم قبل أي شيء أن ينير المناطق المظلمة للدين بمصباح العقل حتى يبعد الإنسان على أن يصبح ضحية لبعض الفلسفات التي تستفيد من قوى الدين لكي تظلم وتقهر وتستغبي الجنس البشري، كما أكد على أن هذه القوى التي طالما رهب منها الإنسان وأطلعها ما هي إلا صورا من عقله المحدود الذي تنقصه الثقافة.

يعود فيورباخ ليؤكد أنه ليس الهدف من كتاباته هو الدعوة للإلحاد بل دعوة للناس لكي يصبحوا أنثروبولوجيين بدل كونهم لاهوتيين، وأن يحبوا الإنسان حيث قال: **"أن يكونوا مواطنين معتمدين على أنفسهم في هذه الأرض بدلا من أن يكونوا كهنة مراوغين لحكومة كهنوتية وأرضية وعلى**

[1] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 296.

[2] جماعة من الأساتذة السوفيات، الموجز في تاريخ الفلسفة، ط1، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، 1989، ص 297.

هذا فإن هدفي ممكن من أن يكون أي شيئا إلا أن يكون سلبيا هادما، فهو هدف إيجابي، فأنا أنكر لكي أثبت، أنكر أوهام اللاهوت والدين حتى يمكنني أن أؤكد الكيان الجوهري للإنسان".[1] فعلا قد قام فيورباخ بنقد علم اللاهوت والفلسفات التجريدية والعقلية هذا النقد التهديمي لم يكن نقدا من اجل النقد فقط بل كان نقدا بناءا ولهذا زرع على أرضية النقد الخصبة بذور فلسفة جديدة فلسفة الانسان. وإذا كانت الفلسفة فعلا منوطة بالإنسان وقضاياه، فقد حمل فيورباخ الفيلسوف المسؤولية وكل ما يعود على الكائن البشري من سلب ومشاكل وقضايا سببها الفيلسوف لا غير لذا فعلى الفيلسوف دراسة الانسان دراسة حسية باعتبار ان الإنسان كائن حسي فنجده ينصح الفلاسفة قائلا: **"ينبغي أن يدخل الفيلسوف في متن الفلسفة حصة الإنسان الذي لا يتفلسف بل الذي هو ضد الفلسفة، هكذا فقط تستطيع الفلسفة أن تصير قوة كلية، كونية، كلية القدرة، لا تفحص ولا تقام".**[2] فالفيلسوف الحق هو الذي يتغلغل في أواسط العامة من الناس ويحمل قضاياهم ومشاكلهم، ويضعها كقضايا فلسفية محضة يحلها وفقا لمناهج معينة ويشمل فيورباخ بالقول حتى أولئك الناس الذين يعارضون الفلسفة ويرفضونها. عليهم بحمل الرسالة ونشرها حتى وان كانوا يرفضون الفلسفة الا انه عليهم حمل أعباء الناس وقضاياهم ومحاولة وضع مشاريع لمساندة ومساعدة العامة. كما أنه على الفلسفة أن تحل محل الدين، فتزود الإنسان بالقدرة على إمكانياته الحقيقية في بلوغ السعادة بدلا من العزاء الديني، فإذا كان الدين يعد الإنسان بالخلاص بعد الموت فإن الفلسفة مدعوة لأن تحقق على الأرض ما ينشر به الدين في عالم الغيب.[3]

إن أنثروبولوجيا فيورباخ تتضمن مبدأ أو هدف أساسي يقوم حسبه على:

في التغيير العلمي للوعي الاجتماعي الذي يرى فيه انعكاسا لماهية وجوهر الإنسان وهي قبل كل شيء: إحساس، حياة عقل وقلب، انفعالات الإنسان وعواطفه، مشاعر الفرد الذي يحب ويتعذب. وعليه ينبغي دراسة مختلف أشكال الوعي الاجتماعي، ولا سيما الدين منها، من زاوية محتواها الحياتي وقد عرف الوعي بأنه **"هو النشاط المكتف ذاتيا توكيد الذات، وحب الذات، إنه البهجة في كمال واحدنا الخاص، الوعي هو العلامة المميزة لكينونة كاملة، الوعي يتواجد فقط في كنونة تامة متممة".**[4]

---

[1] لودفيغ فيورباخ، أصل الدين، ترجمة أحمد عبد الحليم عطية، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، 1991، ص 39.

[2] لودفيغ فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 206.

[3] جماعة من الأساتذة السوفيات، الموجز في تاريخ الفلسفة، ص 296.

[4] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص 56.

ومن هنا انطوت انثروبولوجيته على بدايات للفهم المادي للتاريخ، على محاولات تفسير للدين تفسيرا ماديا، يعتبره انعكاسا لحياة الناس الواقعية فهمه هذا تماما كفهمه لماهية الإنسان. فقد رأى بان الدين بدا كانعكاس مرآتي لما يريد تحقيقه الانسان في الواقع فالصفات الإلهية هي الصفات التي طالما حلم الانسان بتحقيقها على ارض الواقع، لكن نتيجة لضعف فيه لم يستطع تحقيقها فحاول تجسيدها في كائن اخر اقوى منه، كائن غيبي ميتافيزيقي خارق.

لقد حدد فيورباخ فلسفته ومعالمها ابتداء من الإنسان وواقعه ووجوده منقلبا في ذلك على الفلسفات السابقة المثالية والنظرية. فهو إذا يولد الفكر من نقيضه، من الوجود، من الحواس، فانقلب على جوهر سبينوزا كانط، فشته، على الهوية المطلقة عند شيللنغ على العقل المطلق لهيجل ...إلخ ويعوض بدلها: المادة، الوجود، الحواس وكل ما يجسد على ارض الواقع ماديا. إن فيورباخ الذي لا يرضيه الفكر المجرد والتأمل، يلجأ إلى التأمل الحسي لكنه في نفس الوقت لا ينظر إلى الحساسية بوصفها نشاطا عمليا لحواس الإنسان، هذه الفكرة التي ذهب إليها ماركس في توجيه انتقاداته لفيورباخ مضيفا إليها أن هذا الأخير يذيب الكائن الديني في الكائن الإنساني، هذا الكائن في حقيقته هو مجموع العلاقات العامة، وعليه ففيورباخ لم يقم بالنقد اللازم لهذا الكائن يكون مجبرا على تحويل مجرى التاريخ إلى تجريد وتثبيت الحس الديني في ذاته، مفترضا وجود فرد إنساني مجرد منعزل، وهو ملزم على اعتبار أن الكائن الإنساني بالنتيجة، فقط بوصفه نوعا بوصفه عمومية داخلية خرساء[1] لقد اكد ماركس على النقد الفيورباخي الذي طال اللاهوت وما يتلق به كان نقدا ناقصا من حيث انه وصفه بالعمومية الداخلية المبهمة.

[1] هنري آرفون، فيورباخ، ص 124-125.

المبحث الثاني: أبعاد الإنسان الفيورباخي.

بطبيعة الحال تختلف الطبيعة الإنسانية عن الطبيعة الفيزيائية، وباعتبار أن الطبيعة الإنسانية كثرت فيها التأويلات وتضاربت حولها الآراء فكل فسرها من خلال منظوره الخاص، أما فيورباخ فقد وقف على الأبعاد التي يحملها الإنسان وهي:

1-المشاعر والجسد

، 2-الأنا والآخر

3-العاطفة والحب

4-الموت والخلود

1-المشاعر والجسد

إن المشاعر أساس الوجود، والوجود المجرد ليس له وجود، والموجود بلا مشاعر ليس شيئا لأنه سيكون كائنا بلا حساسية-بلا مادة- يقول فيورباخ: "**بلا حد بلا زمن، بلا عذاب ليس ثمة كيف ولا قدر أيضا ليس ثمة روح ولا عاطفة ولا حب، فالكائن مجموعة من المطالب لا تكتمل، وهو على هذا النحو فقط يمثل الكائن الضروري، إن الوجود بلا مطالب لا حاجة إليه، ومن هناك فالكائن المحروم من كل مطلب- حاجة- لا يشعرنا أيضا بالحاجة إلى الوجود الكائن الذي لا يتعذب، الكائن الذي ليست له مطالب ولا حاجات ليس إنسان، يستحق الوجود من يستطيع أن يتعذب، إن كائنا بلا ألم، بلا كينونة ليس شيئا، إنه كائنا بلا حساسية، بلا مادة**".[1] ان الانسان الذي لا يحس بمشاعر معينة والفرد الذي يتجرد من العواطف والاحاسيس هو كائن فاقد الإحساس بوجوده باعتبار ان الانسان يعي وجوده الفعلي من خلال احساسه بمشاعر معينة. وعليه يمكن الإنسان الذي له مشاعر ومطالب وحاجات هو الإنسان الموجود بالفعل والإنسان الذي يعيش من دون مطالب ولا حاجات لا يتحقق الوجود من أصله لأن الحياة تستحق العيش والعذاب والاحتياج، ودون هذه المشاعر لا حاجة للحياة، وهو هنا يناقض تلك الفلسفات المثالية والعقلية والتي جعلت من الإنسان آلة للتفكير المجرد ورسمت من جوهره وماهيته في العقل وهو هنا أيضا يعلن انتقاده

[1] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 132.

لهذا النوع من الفلسفات التي رفعت من قيمة العقل والفكر وجعلت من الملذات والطلبات والحاجات مجرد غرائز حيوانية، وقد رأى بأن مجرى الحياة الإنسانية يقوم على فكرة الشعور والحاجة وحب الحياة والعيش للتمتع بما تنتجه الطبيعة. فيقول: "**إن الفلسفة لا تحتوي على أي مبدأ منفعل هي فلسفة تصادر على وجود بلا ديمومة، على كيف بلا إحساس، بلا كينونة، على الحياة بلا لحم ولا دم، إن هذه الفلسفة مثل فلسفة المطلق لا بد أن تكون ضد التجريب وضد المحسوس.**"[1] فهو يرفض وبشدة تلك الفلسفات التي درست للكيف والوجود دون إحساس ومادة وكينونة وينقلب عليها ثائرا على مبادئها، فهو هنا يكون قد سبق تلك الفلسفات الوجودية المعاصرة وقد لمح لها قبل كيركجيرد وقبل نتشه وغيرهم.

وبذلك يكون هنا من ضمن فلاسفة الحياة كديلتاي وبرغسون... إلخ في هذا الصدد يقول:" **إذا ترجمنا بوعي الذات اسم الفلسفة، الاسم الإنسان، نكون أولنا الفلسفة الجديدة بمعنى القديمة، نكون أرجعناها إلى وجهة النظر القديمة، إذ أن وعي ذات الفلسفة القديمة هو تجريد بلا واقعية، مادام مفصولا عن الإنسان، الإنسان هو وعي الذات**".[2] وبذلك فيورباخ غير المجرى فبعد ان كان الوعي تجريد بلا واقعية صار الوعي هو وعي الذات الإنسانية والغوص في اغمارها

وقد أكد فيورباخ على أن المشاعر والأحاسيس تسبق الفكر لأن المشاعر هي التي تطبق على أرض الواقع وتحس في حين أن الفكر يعتبر كمجال مجرد ميتافيزيقي. لأنه يجب على الفلسفة الجديدة ان تستند إلى الشعور، فالفلسفة هي الشعور في الوعي والشعور لا يريد موضوعات وكائنات مجردة ميتافيزيقية أو لاهوتية بل يريد موضوعات وموجودات واقعية ومن هنا يدعو فيورباخ إلى وحدة العقل والقلب وهي الوحدة المطابقة للحقيقة.[3] وهو يرى في الشعور والوعي أساسا لفلسفته الإنسانية وهنا نجده أقرب إلى هوسرل في هذا الطرح هذه الفلسفة الجديدة تجعل من الإنسان موضوع الفهم بوحدة الرأس والقلب، الفكرة والحياة ويبرز ذلك في جوهر المسيحية قائلا: "**يصبح الإنسان واعيا لنفسه عبر الغرض الذي يعكس كينونته، الوعي الذاتي للإنسان هو وعيه للغرض، يعرف واحدنا الإنسان بالغرض الذي يعكس كينونته، الغرض يجعل كينونته تظهر له، الغرض هو ذاته المنكمشة، أناه الحقيقية الموضوعية، وهذا يصح ليس فقط على الأغراض**

[1] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 133.

[2] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 217.

[3] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.2008 ص 165.

الفكرية بل أيضا على الأغراض الحسية.[1] في حين كانت الفلسفات القديمة تبدأ بقضية: أنا كان مجرد، كائن مفكر وبالتالي جسدي ليس مني وليس ملكا لجوهري، وتنكر حقيقة الجسد أما الفلسفة الفيورباخية فتتفق إلى حد ما مع الفلسفة الوجودية في اعترافها بحقيقة الجسد وتبدأ في ذلك من الواقع الحسي والجسد، فيقول في مؤلفه مبادئ فلسفة المستقبل: أنا كائن حسي وجسدي هو أناي، جهوري.

هذه الفلسفة العقلية جعلت من قيمة الإنسان في فكره وأفكاره المجردة متناسية بذلك جانبه المادي ألا وهو الجسد فأعطت الأولوية والأهمية للجانب المجرد الميتافيزيقي وأقصت الجانب الآخر المادي الفيزيولوجي-في حين أن هذا الأخير هو الملموس الواقعي المبرهن والموجود على أرض الواقع - وعليه فالأساس في الحياة هو الحواس وهي التي تكمل الإنسان وتيسر له تعامله في الحياة فيقول :"**إنك فيزيقي بكل ما تحمله الكلمة من معنى ولو فقدت حواسك ستصبح في ألم عظيم آلاف المرات يوميا ستصبح ناقصا إذا فقدت حاسة من حواسك**". يخاطب فيورباخ الانسان مؤكدا على انه فيزيقي مادي واقعي والدليل على ذلك انه ان فقد حاسة ما سيصبح ناقصا وهذا كدليل حي على فاعلية الحواس واهميتها في المضي قدما

وقد اعترف فيورباخ هنا بحقيقة وجود الجسد والتأكيد على الأنا المادية الحقيقية الحسية الملموسة، وهنا نجد أن الجسد يعتبر المقولة الأساسية للفلسفة الفيورباخية وقد أولى له الأهمية الكبرى. لقد درس فيورباخ الفلسفات الحديثة ودراسات الفلاسفة لثنائية النفس والجسد فوقع أنها وقعت في ورطة الشرط والتغليب، فإما نجدها قد غلبت الجسم والمادة والتجريد أو غلبت النفس والإنسان والفكر أو بظهور واحدية محايدة تجمع بينهما.[2] وبهذا لم تستطع الفلسفة المجردة حل هذه المشكلة على الإطلاق لأنها وقفت حائرة أمام مشكلة التأثير المتبادل بين الجواهر المختلفة كتأثير الجسد على النفس لأنها حسبه قد جعلت من تلك الجواهر المختلفة كائنات عقلية وألغت الحساسية التي تمكنها وحدها أن تحل سر التبادل بينهما.

أما فيورباخ فقد قلب هذا المفهوم وثار عليه فوضع الكائن هو الموضوع-الذات مسند إليه-الحامل-المبتدأ أما الفكر هو المحمول أو الخير، الكائن موجود انطلاقا من ذاته وبذاته، الكائن لا يعطي إلا من قبل الكائن، الكائن هو اللا كائن أي عدم بوصفه الكائن، وقد قال أيضا بجوهر الكائن بوصفه الكائن هو جوهر الطبيعة، التوالد الزمني لا يخص سوى الأشكال لا جوهر الطبيعة. إن الفهم المجرد يفصم عرى الوحدة الطبيعية

[1] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص 54-55.

[2] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 134.

بين الجسم والعقل وهو يعزل كل منهما عن الآخر بطريقة مصطنعة لجعل منهما جوهرين مستقلين ثم يحاول التأليف بينهما بطريقة مصطنعة أيضا. [1] هكذا حل فيورباخ المشكلة الفلسفية القائمة بين النفس والجسد من خلال الموقف الطبيعي، فجسدي معطى لي بصورة مباشرة ونحن متحدان وحدة أصلية واختلاف الإنسان عن الحيوان لا يقوم على الفكر فقط وإنما يقوم على الكيان كله[2] **"إن الإنسان لا يختلف أبدا عن الحيوان ومع ذلك فإن الإنسان الذي لا يفكر ليس إنسانا، لا لأن التفكير هو السبب بل لأنه هو النتيجة الضرورية والخاصة المميزة لماهية الإنسان، ولسنا بحاجة هنا أيضا إلى تجاوز مجال الحساسية لكي نعرف أن الإنسان يتفوق على الحيوان"**.[3] الانسان مثله مثل الحيوان في الجانب البيولوجي لكنه يتفوق عليه ويختلف معه بالتفكير لكن التفكير يقوم على الوعي كأساس عملية التفكير وقوامها.

يرى فيورباخ هنا بأن الفرق الجوهري بين الإنسان والحيوان ليس في الفكر وحده، بل أن حواس الإنسان تختلف بدورها عن حواس الحيوان، فحواس الإنسان أكثر طلاقة وحرية من حواس الحيوان بالرغم من حواس هذا الأخير أكثر حدة وقوة إلا أنه موجه إلى فريسته فقط في حين أن نظر الإنسان أشمل وأعم وأكثر عمقا. وهكذا نصل إلى أن حواس الحيوان لها جانب جزئي وتخدمه في مجال معين أما حواس الإنسان فهي كلية عامة وشاملة لأنها مرتبطة أيما ارتباط بالتعقل.

2-الأنا والآخر:

هنا تتمثل فلسفة فيورباخ وتقفز قفزة إلى الأمام فبعد أن كان يتكلم عن الإنسان وجوهره وذاتيته كفرد فإنه سينتقل إلى الآخر وعلاقته بالانا، هذا الموضوع والذي يعتبر من أهم القضايا المعاصرة خصوصا في الفكر الوجودي، وهي مشكلة التواصل والمشاركة والحوار بين الأنا والآخر، ففيورباخ في فلسفته هذه قد اهتم بالإنسان- الإنسانولوجيا أو الإنسانية – وليس الاهتمام بهذا الإنسان وحده كجزء أو وحدة أو فرد بل اهتم به كفرد لا يكتمل إلا بتواصله مع الآخر، على أساس أن الإنسان لا يستطيع أن يحقق ماهيته وجوهره على أرض الواقع إلا بتكامله مع الآخر وتواصله مع أفراد المجتمع. إن العلاقة بين الأنا والأنت لا تتحقق إلا بعاطفة الحب بين هذين الطرفين، فبالحب يتصل الإنسان اتصالا وثيقا بالشخصية. وهو الوسيلة أو

[1] أحمد عبد الحليم، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص 166.

[2] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 135.

[3] أحمد عبد الحليم، الأنسان في فلسفة فيورباخ، ص 167.

الطريقة الوحيدة التي تخرج بها الأنا أو الذات من اكتفائها الذاتي وذلك لأنها تحتاج لأنا أخرى، وهي عبارة عن أخلاقيات تخرج الأنا من قوقعتها بمجتمعها للأخر، فالمطلب الأساسي للأنا هو الاتصال الروحي بالأنت أكثر من مواجهة الموضوع.[1] لأن الحب هو السبيل الوحيد الذي يخرج الفرد من دائرة ذاتيته وسجن الذات إلى فلك الآخر والغوص في شخصية الآخر، فمحبتنا للآخر تحتم علينا أن نطلبه ونتصل به ونتحاور معه، كما أننا نحاول أن نتفاهم معه حتى ولو اختلف معنا، مما يفتح باب التواصل والحوار والمشاركة مع الآخرين. بهذا يتحرر الانسان من سجنه الداخلي الذي سيقوده حتما الى الانانية المفرطة كما انه سيسير به نحو امراض نفسية عويصة من الصعب علاجها او الشفاء منها.

3-الحب والعاطفة:

لعله من أهم العلاقات وأمتنها وأوثقها بين الأنا والآخر هي علاقة الحب باعتباره عاطفة جياشة تمتن الرابط بين هذين الطرفين، فوجود الإنسان لا يثبت واقعيا حسب فيورباخ إلا من خلال حبه للآخرين، وقد ذكر في هذا السياق: "**غير صحيح القول بأن الإنسان يوجد لنفسه ويحيا بمفرده أن وجوده لنفسه يتساوى مع العلوم**".[2] فوجود الإنسان لذاته لا يعتبر وجودا بل عدما بحد ذاته فالوجود أو الموجود تعتبر كلمة تعبر عن العلاقات المتبادلة مع أكثر من وجود، أما كلمة العدم أو اللاشيء فهي تعبر عن العزلة والابتعاد عن الآخرين. فماهية الإنسان وجوهره هو أولا وقبل كل شيء، إحساس، حياة العقل والقلب، انفعالات الإنسان وعواطفه، مشاعر الفرد الذي يحب ويتعذب ويتوق إلى السعادة. وعلى هذا النحو تنبغي دراسة مختلف أشكال الوعي الإجتماعي وهذا يتسنى إلا بالانتقال من الفردية إلى الجماعة عن طريق الحب والتواصل مع الأنت لا يكون إلا بعاطفة الحب لا غير. إن الحب هو اندماج الجوهر والشخصية وفي ذلك يقول: "**إن شعرت بالحب تستطيع أن تقول أنك تعرفت على الكل، نستطيع أن تعرف الله، الموت.**".[3] قد وضع فيورباخ الحب هو الحقيقة التي بها نصل لفهم حقائق الوجود والوصول لحقيقة الحقائق.

إن الحب هو الدليل والشهادة على الخروج من الانعزال والانغلاق إلى التفتح على الآخر المغاير والمخالف لما والمختلف عنا، مما يدفعنا للخروج من ذواتنا ولذلك نحكم حدود وحواجز ذاتيتنا ونتخطاها.

---

[1] أحمد عبد الحليم، الأنسان في فلسفة فيورباخ، ص 169.

[2] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 139.

[3] جماعة من الأساتذة السوفيات، موجز تاريخ الفلسفة، ص 298.

فأعظم عاطفة في الوجود هي عاطفة الحب هذه العاطفة الجياشة القوية التي تحقق العجائب وتخرج الانسان من سجنه ليغوص في الاخر وبهذا يكون الحب قد حقق مالم تحققه أي قوى أخرى وهي الخروج من الذات والدخول في ذات أخرى وبذلك فبدون الحب يصعب التعايش مع الغير.

4-الموت والخلود:

كما ذكرنا سابقا أن الفلسفة الفيورباخية ترتبط ارتباطا وثيقا مع الوجودية المعاصرة، وهو يربط فكرة الموت بالموت الداخلي العضوي لا غير فنحن نموت من الداخل أولا بعد ذلك يظهر خارجيا :"**إن موتنا ليس إلا نذيرا أخير لموتنا الداخلي، الموت يكمن في دمنا، في أعصابنا، في مخنا، في قلبنا، في كل أعضاء جسمنا، في كل خلية من الجسم الإنساني، عندما يموت جسمنا بأكمله لا يكون ذلك إلا جزءا من موتنا الداخلي، يحدث اضطرابا بداخلنا، ذلك الفراق، الثلاثي، الانقسام، لا ينقطع، فالموت لا يتأتى من خارجنا كما جاء في لوحات القرون الوسطى في شكل هيكل عظمي بيده شوكة كبيرة ولا في شكل جان يقود حصان يعمل عليه الروح، ولا جان بأجنحة جميلة كما عند اليونان، فالموت يتأتى من وجودنا نحن وينبغ من أعماقنا الداخلية**".[1]وهنا نجده أنه يرفض تلك النظرية الميتافيزقية القائلة بأن الموت هو عبارة عن طيف أو شبح أو جان أو أي شيء، ميتافيزيقي يخطف الروح منه الجسد، كما أنه يرفض تلك الرؤية القائلة بأن الموت عبارة عن قدر لكل إنسان فرضه الله على البشر، وبأننا نعود من حيث أتينا، هنا فيورباخ يرجع فكرة الموت إلى ذواتنا نحن، ونحن حسبه نموت داخليا وعضويا لا غير. حتى أنه في هذا القول يفند النظرية اليونانية حول الموت وتفسيراتهم لها ويرفض أيضا تلك النظرة الفنية التي جاءت في القرون الوسطى حول الموت وتصويراتهم الغريبة لها فهي ضرب من الخيال حسبه، مغيرا بذلك هذه التأويلات الميتافيزيقية ومعيدا إياها الى الواقع بتفسير مادي. وهو كذلك يربط الموت بالحياة بعلاقة تداخل وتكامل عجيبة فالموت ليس بشيء غريب بل هو حدث واقعي مستمر في الحياة وهو جزء منها لا غير إضافة إلى أنه لا يوجد معنى للحياة إن لم يكن الموت مقابلا لها.

أما بالنسبة لعلاقة الموت بالخلود فهو يقول عن الخلود: "**الخلود وكلية الحضور صفتان محسوستان، لأنه فيهما لا يوجد فيهما نفي للوجود في الزمان والمكان، بل فقط للتحديد الحصري بوقت معين، بمكان معين، بطريقة مشابهة فكلية العلم صفة محسوسة معرفة محسوسة، والدين لا يتردد**

[1] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 144.

في أن يعزو للإله نفسه الحواس الأنبل، الإله يرى ويسمع كل شيء لكن كلمة العلم الإلهية هي قوة المعرفة، عبر الحواس، في حين أنه مع ذلك فالصفة الضرورية التحيد الأساسي للمعرفة الفعلية عن طريق الحواس مرفوض بالنسبة لها، تقدم حواسي عن الأشياء المحسوسة إلى فقط بشكل منفصل وعلى نحو متعاقب، أما الإله فيرى كل شيء محسوس في آن ". [1] فالخلود والحضور كلاهما صفتان نحسهما لانهما يتشابهان بعدم احتوائهما على النفي للزمان والمكان وبهذه الخطى يتوصل فيورباخ الى نفي وجود الاله على أساس ان المعرفة لا ترضى الا بما هو معطى حسي واقعي وبذلك يفند وجوده ويقر بان الانسان يوهم نفسه بالخلود راغبا في تحقيق مالم يستطع تحقيقه على ارض الواقع.

وعلاقة الموت بالخلود يفصلها على النحو التالي فيقول: "**نحن لا نريد أن نموت، نريد أن نوسع وجودنا إلى ما وراء مقبرتنا الأرضية، ندمها إلى اللانهائي، نحلم بمبدايتنا إلى ما لا نهاية بلا حدود مكانية، نحن نرتبط بالنجمة المتصلة والصلبة لذاتنا الحقيقية نربط بها راية متسعة.**" فيورباخ هنا يرى بأن الإنسان وضع فكرة الخلود باعتباره الرغبة في الحياة بعد الموت، حيث يوضح في هذا القول أن للإنسان حلم وهو توسيع فكرة الموت فيعتبر المقابر التي يدفع فيها، عبارة عن أماكن تحمل في خباياها المالانهاية، كما أنها ليت لها حدود مكانية ولا زمانية، تلك هي فكرة الخلود بمعنى أن الإنسان يرى في الموت حياة ليس لها حدود. متمنيا بتحقيق فيها مالم يحققه في وجوده الفعلي الواقعي الحياة من رغبات ومطالب، وبهذا تكون فكرة الموت والذي نخلد فيه هي فكرة خلقها الافراد الذين لم يستطيعوا تجسيد الخلود في الواقع.

[1] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص 285.

المبحث الثالث: ازدواجية الطبيعة البشرية:

ان الانسان حسب فيورباخ مزدوج في ذاته فهو حامل للصفات الحيوانية كالغرائز والشهوات التي اقر فيورباخ بانها جزء لا يتجزأ من طبيعته فهو يتشارك بها مع الحيوان هذا من جهة، لكن من جهة أخرى نجده يختلف عنه من عدة نواحي وهو ما يعبر عنه بالعقل

1-الوعي كأساس للتمييز بين الإنسان وغيره من الكائنات:

من الشائع أن الفلسفة الفيورباخية هي فلسفة إنسانونية بمعنى أنها اهتمت بالإنسان ككيان ووجود واقعي، مادي، وباعتبار أن الحيوان كذلك يحمل نفس الصفات بأنه هو الآخر أيضا حاملا لصفات الوجود الواقعي المادي، هذا لا يعني أن الفكر الفيورباخي يشبه وجود الإنسان بوجود الحيوان. ففيورباخ قد ميز الأول عن الثاني من خلال الوعي مما يذكرنا بفينومينولوجيا هوسرل إضافة إلى أن الإنسان يتميز عن الحيوان بأنه حر غير مقيد: "**إن ما يميز الإنسان ليس مجرد الوعي، ولكن حقيقة أن الإنسان موجود كلي غير متناه، ولا مقيد بل حر لأن الكلية وعدم التجديد والحرية لا يمكن فصلها وهذه الحرية لا توجد في قدرة خاصة في الإرادة مثلما لا تكمن الكلية في قوة خاصة من قوى التفكير في العقل، فهذه الحرية وتلك تمتد عبر الوجود الكلي للإنسان**".[1]إن الوعي هو ما يميز الإنسان عن الحيوان، هذا الوعي لا يقصد به هنا الوعي المحدود أو الوعي الفردي، لأن الوعي يعني أيضا الإحساس بالنفس أو بالذات كفرد والتمييز بالحواس، وإدراك الأشياء الخارجية والحكم عليها وهذا أمر لا يمكن إنكاره في الحيوان.[2]لأن الحيوان لديه شعور بذاته ولديه إحساسات متتالية لكنه لا يعي بنوعه.

لقد أشرنا سابقا إلى أن كمالات الوجود الإنساني عند فيورباخ هي ثلاث: التفكير، الحب والإرادة.

فكيف يقاول الحب الحب ؟! والمعرفة المعرفة ؟! والإرادة الإرادة ؟!

إن الحب يدفع المرء للموت في سبيل من يحب، والفكر يدفع الإنسان إلى أن يفكر، والحياة تدفع الإنسان إلى أن يريد، وعليه فالوجود المطلق هو إله الإنسان وعين ماهيته وموضوع ماهيته، وقوة معرفة وإرادة. إن التناهي هو العدم، ولا يمكن أن يكون الإنسان واعيا بالتناهي وإلا كان عدما، الوعي هو ظهور الذات

[1] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 127.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص 130.

وتأكيد الذات وحب الذات والانشراح بكامله الخاص. الوعي علامة مميزة لوجود كامل والوجود خير، التناهي سقوط وتفاهة وعار وقلق[1] إضافة إلى أن الإنسان يعتبر طبيعته الخاصة به أمرا مطلقا فقدرة الموضوع عليه هي قدرة طبيعته ومهما كان نوع الموضوع الذي نعيبه فإننا نعي طبيعتنا الذاتية ولا نستطيع مع ذلك أن نؤكد شيئا دون أن نؤكد أنفسنا ووجودنا[2] وفيورباخ في تحديده لمفهوم الوعي غالبا ما يتهم هيجل بأنه لم يعطي للوعي معناه الحقيقي ولم يضعه في إطاره الطبيعي. لكن فيورباخ قد وقع في نفس الخطأ الذي وقع فيه هيجل حسبه حين أعطى لكلمة حسي معنى لا تحمله هذه الكلمة عادة. فبالرغم من انه خالف هيجل وانزله من على عرش الفلسفة الا انه وقع في الحلقة المفرغة التي وقع فيها هذا الأخير حينما لم يحدد فيورباخ المعنى المراد به بكلمة حسي.

فنحن نقرأ على سبيل المثال أنه يعرفه بأنه: الحسي ليس ما هو دنيوي، ولا ما هو مفكر، ولا ما هو بيئي وطبيعي، إن فيورباخ يعيد إلى الحواس اعتبارها، أمر حسن، لكنه يكتفي بأن يلبس مادية "**الفلسفة الجديدة**" الرداء الذي كان حتى الآن من خصائص "الفلسفة المطلقة" غير أن الناس لن يدعو فيورباخ يقنعهم بأن حسب المرء أن يكون محسوسا لكي يكون كل شيء، أي عامرا بالروح وبالأفكار... إلخ فالناس لا يؤمنون أن بإمكان الإنسان أن يعيش بفضل الروح وحدها بدون خبز. الكينونة لا تبرر أي شيء على الإطلاق، فما هو مفكر يوجد تماما كما يوجد ما ليس مفكرا، فالبحصة في عارضة الطريق موجودة، وتصوري عنها موجود كذلك. كلما كان في الأمر أن البحصة وصورتها موجودتان في حيزين مختلفين، أولهما في الطريق والثاني في رأسي، داخل أناي، وذلك لأنني مكان مثل الشارع تماما. [3]

2-ماهية الإنسان وطبيعة "العقل-الوجدان-الإرادة"

لقد استنتجنا مسبقا أن المطلق صار حاضرا عند البشري أما القيم الأخلاقية مرتبطة به ونابعة من ذاته من شعوره وعن وعيه واتجاهه، فصار هذا الإله نابعا عن قلب الإنسان، فصار المجرد الميتافيزيقي نابعا من ذات إنسانية واعية. كل وجود مكثف بذاته، فكل موجود له إلهه الأعظم في ذاته وكل تحديد هو بالنسبة للآخر الخارجي الأعظم منه كما يظهر في مقارنات للحيوانات بالحشرات، إن الذي يجعل الموجود موجودا هو عبقريته

[1] حسن حنفي، دراسات فلسفية، ص 413.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 130.

[3] هنري أرفون، فيورباخ، ص 116-117.

وقوته وغناه وجماله وكان فيورباخ هنا يوحي بلغة نتشه وبرجسون وإقبال عن الذاتية، فما يثبته الوجود لا يمكن للذهن نفيه فمقياس الوجود هو مقياس الذهن، ولا يمكن الفصل بين الذهن والوجود إلا ظاهريا.

إن موضوع العقل هو العقل موضوعا لنفسه ونفس الشيء ينطبق على كل من العاطفة والفكر. [1]وهذا ما استفاده من هيجل، فلو فكر الإنسان في اللانهائي فإن ذلك إثبات للانهائي في الفكر وإذا شعر باللانهائي فإن ذلك إثبات للانهائي في الشعور فالعقلي وحده موضوع العقل لأن حوار الفيلسوف ما هو إلا مونولوجا للعقل.

وفي هذا الصدد يعبر :"**إن مهمة الفلسفة الحقة هي التعرف لا على المحدود في اللامحدود بل العكس على غير المحدود، على اللامحدود، في المحدود بتعبير آخر ليست نقل المنتهي ووضع في اللانهاية بل نقل اللانهاية ووضعها في المنتهي**".[2]

وعليه فالإنسان إذن مجموعة من الصفات والملكات وهي: الصفاء، العقلانية، النزاهة في المسرات والانفعالات، ولكن الإنسان يرى والعين ترى ماهيتها، وكان الفلاسفة علماء فلك من أجل العين لأن العين هي الطبيعة السماوية أما العاطفة فهي النبل والعظمة أي الإلهي في الإنسان والله هو العاطفة الخالصة اللانهائية الحرة والعاطفة ملحدة من وجهة النظر الأرثوذكسية لأنها ترفض الله الموضوعي وتجعل نفسها هو الله.

والحقيقة أن نفي العاطفة لله، وهذا هو الإلحاد الديني وما يقال عن العاطفة يقال عن باقي الملكات في الإنسان العقل والإرادة[3] يهدف فيورباخ إلى وصف الإنسان الحقيقي قبل أن يتزيف ويغترب أي عندما يكون واعيا بذاته وعيه، ووعيه ذاته في وجدته الداخلية قبل أن يفصله الاغتراب الديني. يهدف فيورباخ الى وصف الإنسان الحقيقي قبل أن يتزيف ويغترب أي عندما يكون واعيا بذاته وبوعيه.

كذلك على الأعمال أن تكون ناتجة وراء الاختيار والتفكير مما يرجعنا لفكرة الحرية وفي هذا السياق يقول: "إن العمل الفني يتطلب الاختيار والقصد والتفكير" وهنا نطرح التساؤل: ماهية طبيعة الإنسان؟! وما هو التمييز النوعي للإنسان؟![4] أي ما يميز تلك الطبيعة الإنسانية؟!

[1] حسن حنفي، دراسات فلسفية، ص 414.

[2] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص 199.

[3] نفسه، ص 200.

إن طبيعة الإنسان أو ماهيته ونفي جنسه أو الإنسانية تتحدد وفقا لثلاث: العقل، الإرادة والقلب.

العقل وظيفته الفكر والإرادة للاجتهاد والفعل للسلوك والقلب هو الحب، هنا يعود فيورباخ إلى قوى النفس الثلاث عند أفلاطون دون التمييز بين النفس والبدن أو بين المثال والواقع فالإنسان يوجد لكي يعرف ويحب ويفعل، وهي قوى وكمالات الوجود الإنساني بل الأكثر من ذلك هي الكمال المطلق للوجود، فنحن نفكر لكي نكون أحرارا فالوجود من أجل التفكير والحب والإرادة. [1] على وجه التحديد، لكنه يشعر بذاته من خلال تلك الإحساسات.

أما الإنسان فنجده يعي ويشعر ويعرف، ويحدد نوعه، يقول في الفرق بين الوعي عند الإنسان وشعور الحيوان: "**الوعي بمعنى الشعور الذات بمعنى القدرة على التمييز بين كائن محسوس وآخر، على تصور وحتى محاكمة الأشياء الخارجية وفقا لخصائص حسية محددة نابعة منها، الوعي بهذا المعنى لا يمكن إنكاره على الحيوان، وإنما تحدثنا بشكل دقيق الوعي معطى فقط في حالة كينونة التي نوعها بالنسبة لها، شكل كينونتها هو غرض للفكر، على الرغم من أن الحيوان يختبر نفسه كفرد... فالقول أنه لديه شعور بنفسه فهو لا يفعل ذلك كنوع، إنه بهذا المعنى فإن الحيوان يفتقر إلى الوعي**".[2] يؤكد فيورباخ على أن الوعي هو المادة الخاصة والفاعلة التي يتم فيها التمييز بين الإنسان والحيوان، لكن إن اعتبرنا أن الوعي يكون نابعا من الحواس فإننا لا نستطيع إنكار النوع بهذه الحالة والصفة على الحيوان فالمشكلة هنا مشكلة كينونة. والوعي يخالف الشعور لان الحيوان يشعر بذاته لكنه لا يعي وبذلك الوعي يخالف الشعور.

عند ملاحظتنا للطيور عندما تطير للأعلى أو أن تخفض جناحيها نجد أن هذه العملية تحتوي على حكمة ما. لكن الملاحظ حتما أن طيران الطيور ليس مبينا على فن، فالفن يوجد فقط عكس الفن، وحينما يؤدي عضوا معين وظيفته. لكن الطائر لا يستطيع الطيران بطريقة أخرى وليست له الحرية في ألا يطير، فعليه أن يطير، فهو دائما يقوم بما عليه فعله لذا فهو الممتاز في القيام بهذا، وهو لا يعرف شيئا آخر غير ذلك فهذه المهمة والعملية تتفق مع طبيعته الخاصة[3] فهذه العملية حتما تقوم حسب فيورباخ على الطبيعة الخاصة بهذا الحيوان دون سواه. فالكائن المحدد ليس لديه إشارة أو وعي بالكائن اللامحدود

[1] احمد عبد الحليم عطية، الانسان في فلسفة فيورباخ، ص 132.

[2] لودفيغ فيورباخ، جوهر المسيحية، ص 51.

[3] لودفيغ فيورباخ، أصل الدين، ص 98.

وذلك لأن حدود طبيعته هي حدود وعيه، ويوضح فيورباخ ذلك بأن يضرب مثلا بوعي الفراشة التي تقتصر حياته على نوع معين من الفراشات تميز بين هذا النبات وذاك ولكنها لا تعرف أكثر من ذلك إنه وعي متناه ولذلك نسميه غريزة. [1]

لقد أسس فيورباخ أنثوربولوجيته هذه، من خلال طرح فلسفي محض، فقد ميز الكائن البشري عن غيره فقد حدد له صفات يختلف بها عن بقية الكائنات الحية فالكائن البشري يتصف بصفات هذه الصفات تكمن في ذاته وجوهره لكننا نستطيع فهمها من خلال تصرفاته وسلوكياته كالإرادة والوعي وغيرها من المبادئ التي يحيا بها الانسان إضافة الى اننا نجد فيورباخ قد يحدد معالم الإنسان المستقبلي. وعين الشروط التي يجب أن تتوفر في الإنسان من عاطفة، وفكر مادي، رؤيته للموت والخلود، حبه للآخرين...إلخ.

[1] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص 131.

الفصل الثالث: ثلاثية الفكر الأخلاقي عند فويرباخ

لقد بدأ فيورباخ فلسفته، وكما ذكرنا سابقا من خلال دحضه الواضح للاهوت ولبعض الفلسفات خصوصا الفلسفة الهيجلية منها، لنجده قد قلب بذلك المنهج المتبع، فبعد أن كان من الذات للموضوع أي من الإنسان للظواهر المحيطة به، صار من الذات إلى الذات، فتغيرت المفاهيم السابقة، خصوصا في الجانب الأخلاقي.

المبحث الأول: الإرادة والسعادة

من المعلوم والمعروف ان الانسان يعيش وهو يحمل في داخله هدف تحقيق غاية ما ولكي يصل لها عليه ان يريده وبشدة لذا فيجب ان يسخر له جميع الوسائل والطاقات، ولعل العامل النفسي يعتبر اهم عامل لبلوغ الهدف لذا فعلى الانسان ان يحيا وهو يشعر بنوع من الارتياح والسعادة لكي يصل في الأخير للنتيجة المرجوة

-الإرادة:

ان الإرادة هي ذلك القرار والتصميم على أداء فعل معين وبلوغ اهداف ما، ولذا فالإرادة حتما هي وليدة قرار ذهني سابق هذا ما دفع بالفلاسفة الى الاهتمام بهذه الخاصية البشرية وفيورباخ أحد من أولئك الذين اهتموا بها في فلسفتهم

أ- نقد إرادة كانط:

إن فكرة الإرادة عند فيورباخ انطلقت من خلال دحضه للأخلاق الكانطية الغير تجريبية والتي تقوم على أساس فكرة الإرادة الخيرة. ولذلك عليها أولا عرض فكرة الإرادة عند كانط والذي أقر بأن الإرادة إن كانت خاضعة لسلطة غير سلطة الضمير، لا تستطيع بذلك أن تنتج قانونا خاصا بها. ولذا ستتلف الإرادة لأنها تصبح هنا تسعى وراء غايات معينة خارجة عن سلطة الضمير، فتصير مجرد تابعة لأوامر عليا، وهنا تنفي فكرة الواجب من أجل ذاته، لتقلب النظرية وتصبح الواجب من أجل غيره. وعليه ستظهر الإرادة نهائيا حسب إيمانويل كانط. وقدور بذلك في كتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق في الفصل الثاني، حيث ذكر: "**عندما تفشت الإرادة عن القانون الذي من شأنه أن يعينها في شيء آخر غير صلاحية مسلماتها لوضع تشريع كلي عام يصدر عنها، وعندما تفتش تبعا لذلك متجاورة ذاتها. عن هذا القانون في خاصية**

أحد موضوعاتها. فإن التنافر هو الذي ينتج عن ذلك دائما. عندئذ لا تعطي الإرادة لنفسها القانون وبحيث لا يقتصر العقل العملي "الإرادة" على أن يدير منفعة أجنبية، بل يبن منفعة أجنبية، بل يثبت سلطانه الأمر وحسب بوصفه أعلى تشريع".[1] وبهذا النص نجد أن الإرادة الخيرة تتصدر فلسفة كانط وتحتل مكانة هامة، لأنها العمل بمقتضى الواجب دون النظر إلى نتائجه أو حتى من أجل غاية ما فهي الخير المطلق لأنها الفعل في ذاته، وليس هناك عمل خير إن لم يكن في ذاته.

ويفوض فيورباخ بأن تكون الإرادة محدودة في إطار زمان معين وفي الحقيقة ليس هناك إرادة، وإن كان هناك من يملكون الإرادة، يقول: "**إن الإرادة ليست ساترا أو صانع معجزات، كما أنها ليست موهبة أو قدرة تؤدي ما يريده الإنسان في أي زمان وأي مكان، وإنما الإرادة شأنها الإنسان في أي زمان وأي مكان، وأنها الإرادة شأنها شأن الإنسان بصفة عامة، لأنها ليست سوى الإنسان صاحب الإرادة، الذي "يريد" كما أنها مرتبطة بالزمان والمكان، والإرادة التي تتجاوز الأشياء نفسها حتى ولو كانت هذه الأشياء متناقضة إلى الفكر المجرد، هي في الواقع ليست شيئا، فما كان في قدرة إرادتي بالأمس لم يعد ملكي اليوم والعكس صحيح**".[2] وعليه فالإرادة في نظر فيورباخ ليست تلك التي عبر عنها كانط لأنها غير موجودة على الإطلاق، لأن الإرادة أتت من الإنسان ومن ذاته، وعليه فهي مرتبطة بالظروف المحيطة بالزمان والمكان. ولهذا فليست هي من تحقق المعجزات، فهي متغيره حالها حال الانسان لأنه وبطبيعة الحال هو من يمتلكها وهي في الوقت عينه مرتبطة بالظروف المحيطة به كالزمان والمكان

كما أنها نابعة من ذات الإنسان وهو الذي يصنعها فهي متغيرة وليست ثابتة. فمن الوارد أن أريد شيئا ما بشدة في فترة زمنية محددة أصبح لا أريده في فترة أخرى، وهكذا فالإنسان هو من يملك الإرادة. ومثال ذلك أن الفلاسفة العقلانيين أصحاب النظريات المجردة أمثال هيجل. رأوا بأن الانتحار عبارة عن تجسيد لحرية الإرادة المجردة القادرة على كل شيء بما في ذلك الانتحار تدمير نفسها والانتحار في فلسفة فيورباخ ليس نتيجة للإرادة على الإطلاق وإنما نتيجة للضرورة السيئة.

إن الإنسان الذي يفكر في الانتحار لا يستطيع الاستمرار في العيش فهو لم يأخذ شيئا من الحياة. ولكنه غير قادر على أن يستخلص أي شيء كما أنه لا يتحمل الحياة بطريقة ما. إن وجود مركب بحيث

[1] إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، تر عبد الغفار مكاوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة. 1975، ص92.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص198.

أن بعض المصاعب لا يمكن تحملها، واختياره طريق الموت أمر محدد. وليس أمرا حرا. وهذا ما نستقل عليه أن الانتحار الذي: "**لم يكن ليفعله العام الماضي يستطيع أن يفعله الآن**".[1]

وبهذا فهو يخالف الفلاسفة العقلانيين في تعريفه للإرادة من خلال مثال الانتحار فالمفهوم الذي يتناوله الفلاسفة العقلانيين بنظرتهم عن الإرادة هو مفهوم مجرد. مبالغ فيه نوعا ما، فالإرادة حسبهم عبارة عن سحر يتخطى الحدود ويمر أي شيء كان ومهما كان نوعه. كما أن الإرادة حسب هؤلاء تدمر حسب نفسها وخصوصا بمثال الانتحار الذي يعتبر من وجهة نظرهم كتدمير للإرادة نفسها.

أما فيورباخ فنجده يفرق بين مفهوم الإرادة والمفاهيم الأخرى، أو بالأحرى يحدد في المفاهيم فمثلا الانتحار حسبه هو ناتج عن الضرورة السيئة لا عن الإرادة أو الظروف الصعبة المحيطة بالإنسان الذي يفكر فيه. كما أن الانتحار هو نتيجة لضعف الفرد وعدم تحمله المصاعب وقلة المقاومة فيه.[2]

الإرادة إذن مثل الإنسان، وذلك لأنها كانت محدد بالزمان والمكان وحتى اللغة فإن كلمة يريد محددة بالزمان والحال فقد تكون في المضارع أو في الماضي أو قد تكون في جملة شرطية. إن الإرادة تبحث عن أشياء محددة لا يمكن وصفها إلا بالجمع بينها وبين ما تبحث عنه. ليس هناك إرادة تتعارض الإرادات في نفس الإنسان.[3] فالإرادة متغيرة، وليست ثابتة وغير مطلقة، تتحدد وفقا لزمان ومكان محدد، وحتى أنها تتماشى مع الظروف وتتغير معها. ولا تتوقف عن البحث عن رغبتها إلا إذا جمعت واتصلت بالشيء الذي تريد عنه وتبحث عليه. ولأنها كذلك، فهي حتما تتماشى مع الإنسان وتتوافق معه. لأنها خاصة به ولذا فهي مثله بالضبط.

ب–الإرادة عند فيورباخ:

إن فيورباخ يريد تقريب مفهوم الإرادة من الواقع، وشبهها بالإنسان. لأنها غير محددة بالزمان والمكان وبما أنها محددة بهما فهي مختلفة ومتغيرة من زمان لآخر ومن مكان لآخر. وحتى الإنسان في حد ذاته ممكن أن يريد شيئا ما في فترة ما، أو مكان محدد، يصبح لا يريده في فترة أخرى أو مكان آخر، كما أن الإرادة حسبه لها غاية وهدف يجب الوصول إليه لذا فالإرادة لا تتفق ولا تعرف إلا بعد أن تصل لهدفها وتحصل على مبتغاها. وعليه يصل بنا فيورباخ إلى أنه هنالك إرادة واحدة لأن الإنسان يستحيل إلى أن ينقسم إلى عدة

[1] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 198–199.

[2] فيورباخ، أصل الدين، ص89.

[3] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص233.

رغبات. وفي ذلك يعرفها على أنها: "**الخلق هو نتاج للإرادة، ليست إرادة العقل، بل إرادة المخيلة الإرادة غير المحدودة، الذاتية بالمطلق**."[1]

فالأخلاق حسب فيورباخ ما هي إلا صورة انعكاسية للإرادة عند الفرد. فكلما قوت الإرادة عند الإنسان كلما ازداد الخلق فيه والعكس صحيح، مضيفا إلى ذلك أن الإرادة ليست إرادة عقل، مجرد أو ميتافيزيقية، بل هي إرادة مخيلة مطلقة وغير محدودة، وليست تلك الإرادة العاقلة والخالصة والتي تريد الشيء لذاته فقط، أو ذلك القانون الذي يعبر عن الإرادة المحضة العقلية، البعيد عن الرغبات والغيابات ونزوات الإنسان. حتى ان الاخلاق ماهي الا ارادات مجسدة على ارض الواقع.

لقد فند فيورباخ هذه النظرة وبشدة تلك التي تضع أو تصوغ الأخلاق بعيدة كل البعد عن الرغبة واللذة والمطالب الحسية. لأن القانون الأخلاقي الذي يخدم الإنسان عليه أن يتماشى وفقا لمطالبه الحسية، ولرغباته وأن يكون هذا المبدأ يتماشى ويتساير وفقا للطبيعة الإنسانية ولمطالبها واحتياجاتها ومراعاة رغبتها على وجه الخصوص. إضافة إلى الرفع من قيمة الإرادة الإنسانية ليجعل منها غاية فردية لتحقيق مصلحة الجماعة. هذه المصلحة هي تحقيق السعادة. وبهذا تصبح السعادة حسبه هي دافع الدوافع. يقول عن الإرادة.

ليس الإنسان كائنا خالصا كالحيوان بل كائن كلي، هو لهذا السبب ليس كائنا محدودا وأسيرا بل كائن غير محدود وحر. إذ من غير الممكن فصل الكلية وغير المحدودية والحرية. وهذه الحرية ليس مكان إقامتها لينقل في ملكة خاصة، الإرادة، أكثر مما هذه الكلية تقيم في استعداد خاص لملكة الفكر، العقل. هذه الحرية وهذه الكلية تمتدان على كينونته التامة، على كل كينونته.[2]

ويؤكد فيورباخ دوما على أن الإنسان حر ومستقل بذاته، هذه الحرية التي تميزه على الحيوان، فالإنسان غير محدود، متميز بالإرادة، والإرادة عند فيورباخ تبدأ من الجزء لتصل إلى الكل، فالإرادة أولا غرضها تحقيق منفعة شخص ما، لكن شريطة أن تتوسع دائرة هذه الإرادة لتصير عامة، هادفة لتحقيق الصالح العام. وبهذا فالإرادة تمر بمراحل فردية جزئية ثم عامة كلية. لكن الغاية المستخلصة من الإرادة هي تحقيق السعادة لا غير.

[1] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص161.

[2] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص96.

فيورباخ يطالب الإنسانية بأن يضبطوا جميع أفعالهم الناتجة عن إرادة ما. أن تكون تتماشى لتحقيق السعادة وبهذا فعلا تصبح السعادة هي دافع الدوافع.

2-السعادة:

السعادة هي ذلك الشعور الداخلي بالبهجة والسرور بحيث ينعكس على الحالة النفسية والمزاجية للشخص مما يجعله ينظر بشكل إيجابي للحياة وللأشياء، فهي أبرز الغايات والأهداف التي يسعى الانسان الى تحقيقها وتقف على راس أولوياته

أ- الطبيعة مصدرا للسعادة:

طالما رفض فيورباخ من أن يرجع الأخلاق إلى المصدر الإلهي، وذلك يعود وكما ذكرنا سابقا إلى نفيه للفكرة اللاهوتية أساسا. وما ينطبق على الكل، انطبق على الجزء هنا، لذا نجد فيورباخ هنا أيضا نفى أن فكرة السعادة مصدرها من ان يكون مصدرها إلهي، حيث قال: "**والناس أيضا سعداء، إلا أن هذه السعادة لا تقوم مثل سعادة الآلهة، والثاني قد يكونوا خيرين أيضا ولكن ليس بصفة دائمة وهذا كما يقول سقراط يمثل الفرق بين الآلهة والإنسان وهو فرق يتلخص في أن الآلهة خيرة دائما. ويقول أرسطو أن الإنسان يتمتع بالسعادة الإلهية في الفكر ولكن النشاط العقلي توقفه بعض الوظائف والأعمال الأخرى.**".[1]

وهنا فيورباخ يرجع بنا إلى الفلسفة اليونانية، التي أشادت بالمطلقية اللاهوتية، وأن الآلهة تمتلك صفات مطلقة أما الإنسان فلا يمتلك سوى حدودا معينة من هذه الصفات. لكن فيورباخ يعارض هذا الرأي. ويعود به إلى الطبيعة وهو يتساءل لماذا المعجزة الإلهية لا تحميني من وهج النار؟ ولا تنقذني من الغرق؟ وعليه فالمعجزة حسبه هي تدمير للنقائض وحدود الطبيعة. الكائنات الطبيعية معرفة وبالتالي فهي كائنات محددة وهذا التحديد في بعض الحالات هو السبب في تعرض الإنسان للمخاطر أو للأذى، ولكن بالمعنى الديني، ليس هذا بالضرورة وإنما هو أمر احتياطي خلقه الله فقد يدمره، بمعنى أن رفاهية الإنسان تتطلب هذا وإنكار المعجزات بدعوى أنها لا تتناسب مع مكانة الآلهة وحكمتهم، هذا الإنكار هو تضحية بالإنسان للطبيعة وتضحية بالدين للفكر. هذه الآلهة ليست شيئا سوى ضرورة شخصية للطبيعة مختفية وراء اسم الله.[2]

[1] فيورباخ، أصل الدين، ص112.

[2] نفسه، ص 113.

فالإنسان يتعايش مع الطبيعة، وحياته كلها مرتبطة بها، ولذا على الإنسان يهبط بتفكيره من السماء إلى الأرض-الواقع المحسوس -وهو يخصص بالذكر الطبيعة وعليه فالطبيعة هي الأساس الذي ينطلق منه الإنسان، وباعتبار أن السعادة حسية هي دافع الدوافع، فإذا يتوجب أن تكون الطبيعة هي المصدر الأول لها. لذا فلكي يحقق الإنسان غايته —السعادة-عليه أن لا يرتبط بما هو مجرد أو بما هو ميتافيزيقي، وأن يعود للواقع والطبيعة، ويجعلها المصدر الأول والأخير، فمن المستحيل حسب فيورباخ أن يحقق السعادة من وراء مصدر مجهول أو ميتافيزيقي.

ب-السعي وراء السعادة (فطرة):

أكد فيورباخ على أن الإنسان مفطور على السعي وراء السعادة، ولذلك يجب أن يكون هذا السعي أساسا للأخلاق، بل هو كل الأخلاق. لكن السعي وراء السعادة حسبه يحتاج للتصليح من جهتين:

ا: من حيث العواقب الطبيعية لأفعالنا، فالنشوة يتبعها الصداع والإفراط الذي أصبح عادة يتبعه المرض.

ب: من حيث عواقبها الاجتماعية، فإذا لم تحترم في الآخرين نفس السعي إلى السعادة، قاموا وأعاقوا سعينا إلى السعادة. وجب علينا أن نعوق كيف نوازن، بصورة صحيحة عواقب أفعالنا. وأن نحترم علاوة على ذلك حق الآخرين المتساوي في السعي ذاته.[1]

هنا نجد فيورباخ وكأنه يضع قوانين للسعادة تحقق منها منفعة للفرد من جهة وللجماعة من جهة ثانية. كما أنه يقدم نصائح للإنسان لكي لا يرجع تحقيق السعادة له بأي أضرار —وللآخرين كذلك-يقول: "**ليس هناك دافع أو إرادة ولا يوجد حافز على الإطلاق، إن لم يكن دافعا نحو السعادة. إن الدافع نحو السعادة هو دافع الدوافع وحتى الدافع نحو المعرفة هو أيضا دافع نحو السعادة**".[2] فالسعادة هي الدافع كما انها دافع الدوافع دون سواها وقد ربط فيورباخ السعي وراء السعادة بالسعي وراء المعرفة لأن دافع المعرفة هو نفسه دافع المعرفة. على اعتبار أن فيورباخ بنى فكره الأخلاقي انطلاقا من نقده للفلاسفة المثاليين والعقلانيين. وأصحاب النظريات المجردة. فقد نقد كانط في فكرة الأخلاق كما ذكرنا سابقا. على اعتبار أن كانط قد ميز في فلسفته بين نوعين من الأحكام أحدهما يتعلق بخيرية العمل وشريته. والحكم على عمل يؤدي إلى السعادة أو التعاسة. فإن هذا التمييز كما يرى فيورباخ ينتج فقط عندما نفكر في علاقتنا

[1] أنجلز، فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، ص27.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص200.

ببعضنا البعض، فلو أننا نفكر بأسلوب يتسم بالأنانية فإنه يحكمنا على عمل ما يأته خير يجب أن نضع في الاعتبار المتاعب التي قد يسببها هذا العمل للآخرين أو السعادة التي قد يضفيها عليهم.

كما أنه يجب علينا أن نميز ذلك عن سعادتنا وعن متاعبنا التي قد تنجم عن هذا العمل وأن هذا التمييز لا ينبعث عندما نفكر في الآخرين، أي في الإنسان بصفة عامة حيث لا نشعر بالفرق بين ما هو خير بالنسبة للآخرين وما يؤدي إلى رفاهيتهم وسعادتهم.[1] إن الفرد لا يهتم إلا بنفسه، فهو يرضي سعيه إلا في حالات نادرة وليس ذلك دائما في مصلحته أو في مصلحة آخر من أمثاله. يجب أن تكون عنده علاقات مع العالم الخارجي، ووسائط من أجل تلبية حاجاته: الغذاء، فرد من الجنس الآخر كتب، تسليات مناقشات، نشاط، أشياء للاستهلاك ومواضيع للعمل.

يقول في ذلك: "**في القصور يفكرون غير ما يفكرون في الأكواخ، إذا لم تكن لديك بسبب من الجوع والبؤس، أي مواد غذائية في الجسم فليس لديك أيضا أي غذاء للأخلاق، لا في رأسك ولا في مشاعرك ولا في قلبك**". وفي هذا السياق يؤكد على ان العوامل والظروف المحيطة بالفرد تؤثر فيه وفي تفكيره فالفقير دائما ما نجد ان تفكيره يتصب نحو تامين الغذاء لا غير، اما الانسان المتشبع من الناحية البيولوجية فنجده قد اكتفى من هذه الناحية ووسع آفاق فكره.

ويقول أيضا: "**الأخلاق قد تكون معاكسة فقط لرغبتي في سعادتي أنا على حساب الآخرين فلو أن الناس لم يشعروا بالرضا وعدم الرضا فإن الأخلاق ستفقد معناها حين لا يوجد فرق بين السعادة والتعاسة، بين البكاء والضحك، بين الخير والشر، فإن الخير هنا هو تأكيد الدافع نحو السعادة. وبالتالي فالصراع بين الواجب والرغبة في السعادة ليس شيئا سوى الصراع بين الرغبات المتنافرة من أجل السعادة.**"[2] إن الرغبة حسب فيورباخ قد تتنافر من أجل بلوغ السعادة، وهو الصراع بين الواجب والرغبة وفي هذه الحالة ستفقد السعادة معناها، ويصل بنا فيورباخ هنا إلى الدعوة إلى الحق المتساوي لجميع الناس دون شرط ولا قيد وهو شرط ضروري ومطلب حياتي.

لكن منذ متى اعترف الجميع بهذا الحق؟ وهل الحق المتساوي لجميع الناس في السعادة كان يوما موضع بحث في الزمان العابر بين العبيد ومالكيهم، أو في القرون الوسطى بين الفلاحين الأقنان والبارونات ؟؟ ألم يكن

[1] احمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص200.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص234.

سعي الطبقات المضطهدة إلى السعادة مضت به بلا هوادة "**وعلى أساس شرعي**" ليسعى للطبقات السائدة نفسه؟[1]

إن الحق الذي طالب به فيورباخ صار اليوم معترفا به قولا، منذ أن رأت البرجوازية نفسها مضطرة في غمرة النضال ضد الإقطاعية ومن أجل تطوير الإنتاج الرأسمالي إلى إلغاء جميع امتيازات المراتب

لكن السعي إلى السعادة يحتاج أقل ما يحتاج إلى الحقوق ويحتاج أكثر ما يحتاج إلى الوسائل المادية، أما الإنتاج الرأسمالي فيهتم بألا يكون للأغلبية الساحقة، وعليه فمن المشكوك فيه أن تحترم الرأسمالية الحق المتساوي للأغلبية في السعادة، أكثر مما كانت تحترمه العبودية والإقطاعية.[2] ومنه فمن الصعب جدا بل من المستحيل أن يوازن نظاما حكوميا، أو أي نضام بين السعادة الفردية والجماعية. وذلك يعود أولا إلى الاختلاف في الرؤى بين الأفراد، وطبائعهم، أيديولوجياتهم، حتى وإن كانوا في رقعة جغرافية واحدة. فالاختلاف هو سنة كونية، ولذا سنجد حتما اختلافا في رغبات الأفراد. وباعتبار أن الأفراد يختلفون سيكون من المستحيل أن نحقق سعادة جماعية، حتى ولو تحققت فستتحقق نسبيا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى صعوبة المهمة مادية، فليس من السهل أن توفر دولة ما كل ذلك ماديا، لأن ذلك يحتاج لوسائل مادية.

[1] أنجلز، فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، ص27.

[2] نفسه، ص28.

المبحث الثاني: (الحب)

1-رؤيته الفلسفية للحب:

لقد وصف فيورباخ العاطفة بأنها القدرة المميزة لمعرفة الذات الإنسانية، إنها القاعدة التجريبية لأن فيورباخ وبمعنى أوضح العاطفة هي المنطلق الحسي الذي اتخذه فيورباخ من أجل وضع نظريته الإنسانية.[1] هذا التعريف على حد رأي **فارتوفسكي**. لقد أعطى فيورباخ للعاطفة والحب المرتبة الأولى والأعلى في فلسفة حتى أنه رأى فيه مصدر معرفة الذات الإنسانية، فعنده يصبح المنطلق الأول في كل رغبة وكل حاجة هو الانفعال بالآخر التجريبي هذا الانفعال يسبق الفكر دائما، يقول فارتوفسكي: خصوصية التجربة المباشرة للشعور، للحاجة، للخوف، للرهبة، للاحترام متوسطة بآخريه موضوعها، أنا أعرف إنسانيتي الخاصة فقط في عملية التصرف إنسانيا مع آخر. أنا لست أنا إلا بالنسبة لآخر.[2] فكل حاجة ورغبة إنسانية إنما مصدرها العاطفة والشعور، لأن الإنسان لا يفهم ذاته ولا يفهم إنسانيته إلا إن أحب طرفا آخر.

هذا ما دفع بفيورباخ إلى وضع ملامح فلسفة جديدة تعيد النظر في الإنسان وتعتبره ككائن موجود ماديا وواقعيا، هذا الوجود يرتبط حتما بانفعالاته، هذه الانفعالات هي عبارة عن شعور وحب وعاطفة، يقول في هذا الصدد: "**إن الفلسفة الجديدة تواجه وتعتبر الكائن كما هو بالنسبة لنا نحن، الذين هم كائنات ليس فقط مفكرة، بل أيضا موجودة واقعيا، إذن الكائن كموضوع لذاته، الكائن كموضوع للكائن وفقط هذا الكائن هناك هو الكائن، وحده يستحق اسم الكائن هو كائن الحواس، الحدس، الشعور والحب، الكائن هو إذن سر للحدس للشعور والحب**".[3]

وفي هذا القول إشارة صريحة إلى أن فلسفته عبارة عن دراسة الكائن كموضوع للكائن هو كائن الحواس الواقعي الموجود، هذا الوجود الذي لا يتحقق إلا بالشعور وبالحب. ففلسفته الجديدة هذه تقوم على حقيقة الإحساس الذي يملأ القلب والفهم، تقوم على حقيقة الحب. هذه الفلسفة بنيت على أساس أن ماهية الإنسان الذي ارتفع إلى مستوى الوعي إنها تؤكد العقل. والعقل وحده الذي يعترف به كل إنسان واقعي من قلبه، إنها القلب الذي سما لمستوى وهو لا يريد موضوعات مجردة بل يريد ماهيات واقعية حسية.[4]

---

[1] حنا ديب، هيجل وفيورباخ. ص202.

[2] نفسه، ص 283.

[3] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل. ص296.

[4] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص146.

بعد أن كانت الفلسفات القديمة ترى بأن الإنسان يقاس بمدى تفكيره فإن هذه الفلسفة الجديدة أحلت محل التفكير المشاعر. على اعتبار والحب. وهي من أهم أبعاد الإنسان الفيورباخي كما أشرنا سابقا-بل هي القلب النابض الذي يحيي الإنسان الفيورباخي هذه الثورة الكوبرنيكية-عبر عنها فيورباخ في قوله: "**في حين أن الفلسفة القديمة كانت تقول: ما ليس مفكرا ليس إنسانا، تقول الفلسفة الجديدة بالعكس: ما ليس محبا، ما لا يمكن أن يحب ليس... كما أن الحب هو المحك الموضوعي كذلك هو المحك الذاتي للكائن، محك الحقيقة والواقع، حين لا يكون ثمة حب لا يكون أيضا ثمة حقيقة وفقط هو شيء ما يحب شيئا. عدم الكون وعدم الحب شيء وأكد كلما كنت موجودا كنت محبا أكثر والعكس بالعكس**".[1] وهنا قد غير فيورباخ منحنى الفلسفة فبعد أن كانت الفلسفة ترى في الإنسان كائنا مفكرا. فإن الفلسفة الجديدة تقدس الإنسان كونه كائنا محبا، كائنا حسيا. لكن السؤال الذي يتبادر إلى أذهاننا هنا هو: إذا كان الإنسان حسب فيورباخ هو كائن حسي وكذلك الحيوان؟ فلماذا لا تحب الحيوانات على اعتبار أنها كائنات حسية مثلها مثل الإنسان؟

يجيبنا فيورباخ هنا على أن الحيوانات وحسيتها لا تتخطى مرحلة الحدس الحسي في حين أنها تصل لذروتها عند الإنسان في: -الحب-إن الحدس الحسي مباشر وفيه يكون تغاطي الإنسان مع موضوعه خارجيا، وفي الحدس الحسي تتحقق الوحدة الحقيقية للذات والموضوع، ولو توقف الإنسان عند الحدس الحسي لكان ينظر إلى جميع موضوعاته نفس النظرة ولكان تعامله مع الإنسان مثل تعامله مع الأشياء. فالغابة لن تعود مجرد كتلة من الأشجار بل تصبح منظرا طبيعيا يحرك المشاعر: **فكر+ عاطفة= حدس حسي**.

لقد أقر فيورباخ فعلا بالحواس كمصدر للمعارف، لكنه أنقذ نفسه من ورطة أصحاب الفلسفات المادية، الذين اتهموا بأنهم جمعوا بين الإنسان والحيوان، فعلا لقد أخرج نفسه وبأعجوبة من هذه الدائرة من خلال: الوعي، الإرادة، الحدس الحسي، وقد فاضت نظريته هذه ليصل بها إلى الذروة حينما رأي في الحب أساس وخاصية إنسانية.

ويقول في المبدأ 41 من مبادئ فلسفة المستقبل: "**الحواس ليس لها كموضوع فقط أشياء خارجية، الإنسان ليس معطى لنفسه إلا بالحواس. إن هوية الذات والموضوع التي ليست سوى فكر مجرد في وعي الذات لا تصير حقيقية وواقعا في الحدس الحسي**".[2] الانسان لا يستطيع فهم ماهيته الا من خلال

[1] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص299.

[2] نفسه، ص304.

الحواس لان الحواس هي نقطة التقاء الانسان مع بقية المواضيع الخارجة عنه، ومن خلال اتصاله بالمواضيع الخارجية وفهم ماهياتها كمعطيات واقعية يستطيع بذلك فهم ذاته

وسينظر لهذا القول بالمثال التالي: "**نحن بالتماس لسنا أشخاص كوننا لحما وعظاما. بل بالتماس نشعر بمشاعر وعواطف، فلما نحن نلمس كائنا ما فنحن نحسب بالكائن أولا لكن الأعمق من ذلك نستشعر عواطف أخرى تخترقنا**". فيقول: "**الأذنان تجعلاننا ندرك ليس فقط خرير الماء وحفيف الأوراق بل أيضا صوت الحب والحكمة الممتلئ نقا وروحا. لا نرى فقط سطوحا عاكسة ورؤى وأوهاما ملونة. ننظر أيضا إلى عمق نظرة الإنسان إذن ليس فقط الخارجي هو موضوع الحواس بل أيضا الداخلي، ليس الجسد فقط بل أيضا الروح. ليس فقط الشيء بل أيضا الأنا**".[1] فالحب لا يمس بالحواس فقط، ولو كان كذلك لأحب الحيوان بذلك، بل يحس بالروح وبالذات، إنه يخترق أعماق ذواتنا، كذلك الروح والأنا هما موضوعان للحواس. ومن هذا المنطلق فيورباخ يكون قد أجاب على تساؤلاتنا. متجاوزا بذلك المذهب التجريبي الحسي، بل إن الحسية عنده تمر على ثلاث درجات ومراحل وهي:1

1-التعقب.

2-الحس.

3-الحب.

إن التلقي مباشر وفوري أي حقيقة الوجود الملموس وهو الذي يسمح لنا بالتواصل مع الخارج، الكائنات، بعدها الحس الذي يوحدنا مع داخل الكائنات بالمشاعر والعقل لتصل في النهاية للحب وهو درجة الكمال.[2]الحب حسبه لا يأتي هكذا لوحده أو من قبيل الصدفة بل أتى على عدة مراحل أولها أن يعود الإنسان لنفسه ويستشعر قوته، ثم بعد ذلك ومن خلال تأليهه لذاته ولحواسه تأتي مرحلة التواصل بعد أن يكون قد تلقى الفرد معطيات معينة واستقبلها. كسببا أولا لتعبر وتنتقل ليستقبلها بفكرة بعد ذلك تنشأ عاطفة معينة ألا وهو الحب. هنا فيورباخ يذكرنا بأرسطو في نموذجه المعرفي المعروف حينما يتلقى الإنسان معرفة معينة بالحواس لتصل للفكر. في الحب فقط يصبح المتناهي لا متناهيا في الحب فقط يصبح للفردي قيمة مطلقة، هنا تكمن حقيقة وألوهية الحب في الحب فقط، يصبح الله الذي يعد شعر الرأس حقيقة وواقعا

[1] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص305.

[2] أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، ص160.

لكن بما أن ال "هنا" ليس له قيمة مطلقة إلى في الحب، كذلك في الحب وحده، وليس في الفكر المجرد يكشف سر الوجود نفسه. الحب انفعال والانفعال وحده معيار الوجود الفعلي.[1]

لقد لمسنا فعليا في هذه المرحلة – فلسفة فيورباخ – التي حطمت اللاهوت مستبدلة إياه بالحب وتطبيقه له لا غير وقد أكد عن ذلك قائلا: "**فقط في الشعور في العاطفة، فقط في الحب يملك ال "هذا" هذا الشخص، هذا الشيء المفرد قيمة مطالقة، في ذلك وفي ذلك فقط، عمق وإلهية الحب وحقيقته اللامحدودة... ولكن بما أن ال "هذا" ليس له قيمة إلا في الحب، لذا ففي الحب وحده في الفكر المجرد ينكشف سر الكائن. الحب انفعال وحده محك الوجود وحده موجود ما هو موضوع وأرفع أو ممكن للانفعال.**".[2] فالشخص لا يملك قيمته المطلقة ولا يحس بتحقيق ذاته إلا عن طريق الحب فالحب هو سر الوجود وعين الوجود وذات الوجود فالنقطة التي توصل اليها فيورباخ بعد رفضه للفكر المجرد واللاهوت هي أن الإنسانولوجيا لا تتوفر إلا بالحب ومع الحب ومن خلال الحب.

ففي الحب فقط أستطيع أن أبرهن على أنه هنالك شيء مختلف عني وله خصائصه الخاصة وماهيته ومميزاته، كما بالحب يمكنني أن أفرق بين ما هو موجود وبين ما هو ليس موجود وعليه أستطيع البرهنة من خلاله على أن هذا العالم الملموس الحسي هو حقيقة وليس خيالا. ومنه فإن الشيء الذي نحبه نسر لرؤيته ونتألم عند غيابه يعني أننا لا نستطيع العيش بدونه ولا الابتعاد عنه. هذا إن دل على شيء دل على أننا نلمس الوجود من خلاله ونتحقق منه من خلاله أيضا.

2–من الفردية إلى الغيرية (الحب):

لقد خرج فيورباخ في فلسفته من تلك النظرة الضيقة المحصورة –الفردية – حينما درس الإنسان ككائن فيزيولوجي واقعي يتميز عن غيره بالوعي، ليوسع الدائرة، بطريقة فلسفية محنكة. فهذا الإنسان الفيورباخي بأبعاده ووعيه وحواسه لا يستطيع تحقيق ذاته إلا من خلال محبته للآخر بكل حواسه وأفكاره وبذلك أخرج فيورباخ نفسه من مأزق الفردية التي لمسناها في فلسفته ومن خلال رؤيته الخاصة للإنسان. وفي هذا السياق قال:"**الإنسان يحب من أجل الإنسان، الإنسان هو غرض الحب، لأنه غاية في ذاته، لأنه كينونة عقلانية ومحبة. هذا هو قانون، قانون الذكاء، يجب أن يكون الحب آنيا غير مخف بأي شيء غير موضوعه لا، بل على هذا النحو يكون حبا، لكن حين أضع بين رفيقي وذاتي فكرة الفردانية التي يفترض أن فكرة النوع قد تم تحقيقها فيها للتو. فأنا أفني نفسي الحب بالذات، أزعج الوحدة كفكرة**

[1] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ص289.

[2] فيورباخ، مبادئ فلسفة المستقبل، ص297.

ثالث متخارج عنا، لأنه في تلك الحالة يكون رفيقي غرض الحب بالنسبة لي فقط بسبب شياهة أو علاقته بهذا النموذج، وليس كل من له هو... في الحب في العقل تختفي الحاجة لشخص وسيط".[1]

فالإنسان يحب غيره –ومن أجل غيره–الآخر–والآخر هو موضوع المحبة وهو قانونها. فهو محصور بهذا الموضوع بالذات دون غيره من المواضيع–لأن ما يبني الحب هو الفردانية حينما نضعها بيننا وبين محبوبنا أو أضع وسيط بيني وبينه أكون قد قطعت العلاقة القوية وقسمت الوحدة إلى أجزاء متفرقة ومتباعدة. لا تبني لنا الحب كفكرة شاملة وقومية وهذا ما يرفضه فيورباخ في نظريته للحب.

إن المحبوب هو الموضوع في كلتا الحالتين "**السرور–الألم**". لكن في الحالة الأولى كان الموضوع موضوعا يواجه ذاتي بوصفي ذاتا. هنا لا يوجد أي تناقض أما في الحالة الثانية بقيت ذاتي نفسها. لكن الموضوع الذي أتمثله في ذاتي ليس هو الموضوع الواقعي، بل ذاتي هنا هي نفسها الموضوع. إذا، الذات التي يجب أن تكون ذاتا فقط، أصبحت في الوقت نفسه ذاتا وموضوعا وعن هذا نشأ الألم. وزوال الألم يكون بحل التناقض بمعنى عودة الموضوع الواقعي: الحبيب ليواجه ذاتي كموضوع.[2]أو بعبارة أخرى أن الحب إذا كان من الطرفين – مكتملا– يكون هنا يسير في طريق موضوعي ولا يعود على صاحبه بالضرر ولا بالتناقض لكن إن كان المحبوب جالبا أو مصدرا للألم والقهر تصير الذات هنا ذاتا وموضوعا في نفس الوقت وهنا يحل التناقض. ولا يزول الألم إلا إذا عاد المحبوب ليواجه ذات الطرف الآخر كموضوع. وقد عبر فيورباخ عن ذلك قائلا: "**الحب يتعذب حين الموضوع الحاضر وفي التمثيل غائب في الواقع، هنا الذاتي هو الموضوع، التمثيل هو الموضوع، ولكن هنا يجب بالضبط أن لا يكون، إنه تناقض لا حقيقة، وشقاء: من هنا مطلب واشتراط إعادة العلاقة الرحقة حيث الذاتي والموضوعي ليسا متماثلين، حتى الألم العضوي يعبر بوضوح كاف عن هذا افرق".**[3]

ويذهب فيورباخ إلى أبعد من ذلك ليصل إلى أن الحب كفكرة هو مقياس للوجود ودليله فأنا أنوجد في الوجود بقدر ما أحب، فمقدار وجودي يقاس بقدر ما أحب وبهذا يقلب فيورباخ الكوجيتو الديكارتي القائل "أنا أفكر إذن أنا موجود" ليصبح "**أنا أحب إذن أنا موجود**" إلى ذلك يؤمن الحب إلى الانتقال

[1] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص341.

[2] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ص288.

[3] فيورباخ،= مبادئ فلسفة المستقبل، ص297.

إلى مبدأ الآخرية والمنطلق هنا هو الحب الجنسي، فالأنا الحقيقي هو إما رجل وإما إمرأة، وهذا الاختلاف هو من يحدد ماهية هذه الأنا كإنسان.[1]

لأن الاختلاف الجنسي نسبة ليس خارجيا فقط أو في بعض من أجزاء الجسم. هذا الاختلاف هو اختلاف داخلي بالدرجة الأولى. وعلى هذا الأساس تتشكل شخصية الفرد من خلال هذا الاختلاف كما أن هذا الاختلاف هو من يحدد ماهية وجوهر –الأنا – هذا الاختلاف أكيد هو من يحدد ماهية الأنا وماهية الأنت وعليه ففلسفة فيورباخ قامت على أساس الاختلاف الجنسي. فوجود الإنسان يعكس كيفيته كرجل أو كامرأة. وعلى هذا فالإنسان يعرف ماهيته كما أنه يعترف بوجود آخر يختلف عنه لكنه يتكامل معه ويكمله. ويتحد معه. وبهذا فالأنا يتصل بالأنت حتما وهذا هو عين الوجود. ومن هنا يؤكد فيورباخ على أن الفلسفة المثالية أخطأت عندما أرادت استنباط الأفكار من إنسان منعزل ومنفصل عن الأنت. فالإنسان الآخر هو الصلة بيني وبين العالم. والموضوع الأول للإنسان هو الإنسان، "لأن الإنسان المنعزل لا يمكنه أن يجوز على ماهيته الإنسانية لا بوصفه كائنا روحيا ولا بوصفه كائنا مفكرا. هذه الماهية لا يحوزها الإنسان إلا في الجماعة ومن خلالها ومن خلال وحدة الإنسان مع الإنسان التي لا تستند إلا على واقع التمييز بين الأنا والأنت.[2]

لقد صعبت الفلسفات المثالية المهمة في نفسها حينما أرادت استخراج واستنباط الأفكار من إنسان مغترب ومنقهر ومفصول عن الآخر لأن الكائن البشري لا يستطيع فهم العالم الخارجي ولا فهم ذاته دون وجود إنسان آخر، فالتفكير والتفلسف لا ينشأ ولا يكون من خلال عيش الفرد في جماعة، وخاصة رابطة الحب التي تخلق فيه حب كل شيء بعد أن يحب شخصا آخر، فلا يستطيع الإنسان الإنتاج إن لم يكن يحب هذا الشيء أو الفكر. وعليه فالحب غرض إنساني وكينونة وتعبير عن الوجود:"**الإنسان هو غرض الحب لأنه غاية، لأنه كينونة عقلانية ومحبة**".[3] فالحب غرض إنساني، غاية وهدف، كبينونة ووجود، حرية الحب لا دين له الحب هو الدين الإنسانية جمعاء.

"**الحب حرية –إنها لا تدين حتى الملك، لأن الحب هو نفسه الإحساس، إنه نفسه ينفي إن لم يكن من الناحية النظرية، فعلى الأقل من الناحية العملية، الوجود للإله معين فردي، معارض**

[1] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ص288.

[2] نفسه ، ص288.

[3] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص341.

للإنسان. الحب يمتلك الإله في نفسه".[1] الحب لا دين له، بل هو الدين بحد ذاته، الحب هو إثبات الوجود من الوجود الإنساني ذاته، هو القاعدة العامة والخاصة التي يثبت بها أي كائن إنساني نفسه، ويعبر به عن ذاته. وقد نص فيورباخ مرارا وتكرارا في كتابه اللاهوت ووضع مكانه الإنسان –لكن كيف يحقق هذا الإنسان ماهيته وهو بعيد عن الله؟ يكون ذلك فقط من خلال تجسيده للحب وتأليهه له فهو الذي يحقق له أهدافه، فهو الدافع وهو الرغبة لتحقيق غاياته وهو السبب. القصدية في الأفعال والنماذج العظيمة للإنسانية تلك التي تكشف لنا ما يقدر عليه الإنسان هي التي تثبت حقيقة أن لها عاطفة واحدة ألا وهي تحقيق الهدف، وهو قاعدة هامة، ولذلك فإن الإنسان يتعرف على نفسه من الموضوع الذي يفكر به. وهنا فيورباخ قد وضع لنا إشارة لقصدية عند هوسرل. والتي تتمحور أساسا على فكرتي: الوعي والرغبة وهما حقيقة النوع الإنساني، فبالتالي الحب هو حقيقة النوع: "دون النوع، الحب، لا يمكن تصوره، الحب ليس غير الوعي الذاتي بالنوع كما تطور ضمن اختلاف الجنس، في الحب حقيقة النوع"

وبذلك يكون فيورباخ قد حطم الثالوث المسيحي اللاهوتي مستبدلا إياه بثالوث – الفكر– الإرادة – الحب والحب هو مفتاح الواقعة الإنسانية. لأن الإنسان وجل لكي يعرف، يحب ولكي يريد، وعليه ففيورباخ رفعت وارتقت من ماهية الإحساس إلى الوعي، والعقل الذي يحس به كل إنسان واقعي من قلبه. هذا القلب الذي لا يريد موضوعات مجردة، لا هوية، ميتافيزيقية، بل موضوعات وماهيات واقعية حسية.

وهنا نجد فيورباخ في فلسفته هرب من الإيمان إلى الحب وقد وصف ذلك شترنر بالخطأ فقال: فالحب تبعا لفيورباخ، معزول جوهري، أما تبعا للمؤمن فإن الحب مقابل هذا يرتبط جوهريا بمجال الإيمان، ففيورباخ ينتفض بشراسة ضد الحب الذي لا منطق له، أما المؤمن فينتفض ضد الحب، الذي لا إيمان له، وبالنسبة إلى فيورباخ كما بالنسبة إلى المؤمن، يكون الحب روعة حياتية، والإنسان ألا يتركان للحب مكانا. ولكن على شكل عبث من جهة وهرطقة من جهة ثانية. إنهما لا يجرؤون على القول بأن الدموع العابثة واللامؤمنة ليست دموعا. ولكن إذا كان علينا أن نستنتج ببساطة أن الحب ليس هو الجوهري، بل الجوهري العقل والإيمان، صحيح أن بإمكان ذلك الذي لا عقل ولا إيمان له أن يحب، لكن الحب لا تكون له قيمته إلا إذا كان حب إنسان عاقل أو مؤمن، إن فيورباخ يبدو ضحية وهم حين يطلق على الطابع الأخلاقي للحب اسم "الحد الذاتي" للحب، وبنفس الصيغة يمكن للمؤمن أن يقول بأن هذا "الحد الذاتي" هو من فعل الإيمان، الحب غير المعقول ليس "من يغار" ولا "مشؤوما" إنه يقوم بدوره ببساطة بوصفه حبا.[2]

[1] فيورباخ، جوهر المسيحية، ص320.

[2] هنري آرفون، فيورباخ، ص119.

المبحث الثالث: نحو فلسفة مستقبلية:

1-في السياسة:

لقد وجدنا فيورباخ ومن خلال عرضه للمفاهيم الأخلاقية ابتدأ من الوعي، إلى الحب والسعادة نجد بأنه قد شكل فكره الأخلاقي من خلال هاته المفاهيم الثلاث: فبالحب ينتهي الصراع بين الأفراد والمجتمعات، وبه تتوحد رغباتهم ودوافعهم. كما أن لغة الحب هي التي تنقل الفرد من الأنانية لتصل به إلى الغيرة أو بالأحرى الشمولية وحب الجماعة.

والاهتمام بالآخرين من خلال تحقيق السعادة لهم عن طريق نوع روح التعاون، وحب الآخرين. ذلك طبعا لن يكون وليد الصدفة، فلا نستطيع لمسه في الأفراد إلا بتجاوزهم للسعادة الفردية، من أجل تحقيق المصلحة الجماعية العامة، فلو ضحى كل فرد الآن بمصلحته الشخصية من أجل تحقيق المصالح العليا المشتركة أو لتحقيق الصالح العام يتكون الفكر الإنساني من الأنانية التي كانت تطبع العالم القديم، ولا تزال لحد الآن تتسم بها المجتمعات المعاصرة. وبهذا الطرح نجد بأن فيورباخ قد ارتقى بنا إلى فكرة أخلقة السياسة.

يقول كامنكا في هذا الصدد: "**إن معظم ما يقوله فيورباخ يفهم على أنه برنامج سياسي وتعبير صلب البنيان الأخلاق الفردية المرتبطة بالمسؤولية الاجتماعية. والترابط الاجتماعي الذي أصبح يشكل أساسا للفكر الديموقراطي الاشتراكي. إن التوازي بين وجهة نظر فيورباخ من الأخلاق والوجهة الديموقراطية الاشتراكية للمجتمع، أمر مسيء للغاية، فهو يستخدم مفهوم السعادة بنفس الطريقة التي يستخدم بها لفظ الرفاهية. وذلك ليخلق هدفا أخلاقيا اشتراكيا يوجه المسيرة الإنسانية الاشتراكية دون أن ينكر أو يمحو المصالح والاهتمامات داخل إطار هذه الصراعات**".[1] يقر **كامنكا** على أن الفكر الأخلاقي الفيورباخي يعتبر كبرنامج أو فكر سياسي ينطلق من تعزيز الأخلاق في ذوات الأفراد ثم ينتقل بهم إلى الوعي بالمسؤولية الاجتماعية وهذا الفكر الذي يقوي الترابط الاجتماعي. هو عبارة عن إرهاص مسبق للفكر الديموقراطي الاشتراكي.

وعليه فالفكر الأخلاقي عند فيورباخ والنظرة السياسية الديموقراطية الاشتراكية للمجتمع متوازيان، لهما نفس الهدف، نفس الغاية، كما أنهما ينطلقان من نفس الأرضية، خصوصا عندما استخدم فيورباخ مفهوم السعادة دالا بها على الرفاهية والتقدم والازدهار العام، والمشترك للمجتمع، قصدا منه غرس هدف أخلاقي

[1] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص 207.

واحد، عام ومشترك لدى الأفراد يسيرهم إنسانيا نحو أفق أفضل، طبعا دون إنكاره أو نسيانه للرغبات والاهتمامات والمصالح الفردية داخل إطار هذه الصراعات. وهذا ما نجده حتما في طيات السياسة الاشتراكية الديموقراطية والتي تعترف دوما، وتنص في مبادئها على أنه لكل فرد الحق في الحصول على مزيد من الرضا وعلى تلبية الحقوق وعلى أكبر كم من السعادة والفرح والسرور.

لقد احتوى الفكر الأخلاقي الفيورباخي، على أن السعادة الفردية أمرا ثانويا وجزئيا أمام الصالح العام، ومن خلال هذه الفكرة يمكننا طرح التساؤل التالي: كيف يمكن للإنسان المادي أن نغلب الصالح العام على السعادة الفردية؟

يجيبنا على أنه على الإنسان المادي ألا يكون كذلك بصفة قاطعة في علاقاته بالآخرين وأن تكون له القدرة الفائقة على التحمل، فهو يرى بأن اهتمام الإنسان بالآخرين اهتمام تلقائي ينبع من طبيعة الفرد، ويعتقد أن مثل هذا الاهتمام يعتبر أمرا تلقائيا أكثر فأكثر كلما تحور الإنسان من الحاجة والظلم، متجها إلى السعادة والعمل أن العدل أمر متبادل وهو بذلك عكس الأنانية أو السعادة الفردية التي كانت تميز العالم القديم.[1]

وعليه ففيورباخ حتما قد أخلق السياسة حينما سعى إلى ربط الإنسان ودوافعه ومتطلباته في علاقة مع أخلاق التعاون الطبيعي. فهو حتما قد تناول الأخلاق بطريقة سياسية. إن التسلسل والترابط في الفلسفة الفيورباخية، قد أنتج فكرا سياسيا، ينادي بالانتقال من الفرد إلى الجماعة، أي من المصلحة الخاصة إلى المصلحة العامة وهنا نجده يمد ومضات وإشارات للاشتراكية الماركسية، اللاحقة عنه.

2-فلسفة مستقبلية:

إن فلسفة فيورباخ وكأنها نقلة أو قفزة من اللاهوت "**الثيولوجيا**" إلى الإنسان "**الأنثروبولوجيا**" وكأنه نحا منحنى سقراط في إنزاله للفلسفة من السماء إلى الأرض، حيث رسم بذلك فيورباخ خطة ممنهجة أعاد من خلالها الاعتبار للإنسان وإخراج الأخلاق من الذات الإنسانية في حد ذاتها، ليس إخراج الإنسان من الأخلاق كما عهدنا في الفلسفات النظرية أو المثالية المجردة السابقة عليه. وقد توصل لذلك من خلال دراسته المعمقة للاهوت ودحضه له، ثم إنزال هيجل من على عرش الفلسفة بشعار من لم يهجر هيجل لم يهجر اللاهوت، إلى أن يصل للإنسان كنقطة مركزية ينطلق منها الفكر، محددا له أبعاده ومميزاته، انطلاقا

[1] أحمد عبد الحليم عطية، ماهية الدين، ص207.

من زاوية مادية، واقعية، في ذلك يقول: "**المادية بالنسبة لي هي أساس بناء الكنه الإنساني وأساس المعرفة الإنسانية ولكنها ليست بالنسبة لي، ما هي بالنسبة للعالم في وظائف الأعضاء والعالم في الطبيعيات، وبمعنى الكلمة الضيق، مثلا بالنسبة لموليشوت. وما هي بالضرورة بالنسبة لهما وفقا لوجهة نظرهما واختصاصهما أي ليست هي بالنسبة لي البناء نفسه فأنا مثقف تماما مع الماديين فيما يتعلق بالماضي ولست متفقا معهم فيما يتعلق بالمستقبل**".[1]

وعلى هذا فالأنثروبولوجيا بالنسبة لفيورباخ هو أساس خطة مستقبلية هدفها إرجاع قيمة الإنسان من الإنسان.

إن الأخلاق عند فيورباخ والتي تستمد من الإنسان والإنسان هو المولد للأخلاق دون سواه تلك الأخلاق التي تنبض بالحب والمحبة والسعادة الشاملة للبشرية جمعاء. هذا الفكر هو فكر حديث، لكن علينا بالعودة إليه للاستنجاد به في عصرنا الحالي كحل للمشاكل التي تواجه الإنسان اليوم، فنظرته هو وكأنها نظرة مستقبلية ليومنا هذا تتنبأ بمشاكلنا المعاصرة، معطيا الحلول اللازمة لهذا النوع من المشاكل.

صحيح أن هذا العصر المعاصر هو عصر التطور التكنولوجي الهائل وعصر السرعة، كما أنه لا يخفى على أحد أن العالم صار قرية صغيرة، فيستطيع الإنسان أن يتواصل مع غيره بكل سهولة وبساطة، لكن المشكل أن هذا التطور بالرغم من أنه ساعدنا في طريقة الاتصال والتواصل مع بعض، كما أنه قرب المسافات وجمع بين الثقافات. إلا أنه وضع الإنسان في حالة مرضية قاهرة تمسه من جميع الجوانب: "أمراض: نفسية-اجتماعية-ثقافية"

من الصعب، بل صار من المستحيل علاجها أو الشفاء منها، هذا المرض تم تحديده بمصطلح اغتراب، كإنفلونزا سريعة الانتشار، ووباء أهلك البشرية جمعاء، فالإنسان وبالرغم من سهولة المعيشة التي يعايشها، وبالرغم من تواجده وسط ثراء مادي وزخم هائل من التطور التكنولوجي ومن التراكم الاسي للمعلومات التي كان من الصعب جدا الحصول عليها قديما، إلا أن هذا الإنسان لازال يعايش حالة اغتراب بجميع أنواعه، كما أن الإنسان المعاصر يعاني وبشدة من ظاهرة التشيء، فصار هذا الفرد عبارة عن شيء أو سلعة تباع وتشترى، خصوصا مع ظهور الإتيتيقا المعاصرة وما أنتجت من علوم كالاستنساخ البشري، زراعة الأعضاء، بيع النطاف، الموت الرحيم، . وغيرها من العلوم التي وبالرغم من أنها ظاهريا تفيد الإنسان، إلا أنها

[1] أنجلز، فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، ص17.

في داخلها حولته لشيء يشترى ويباع، فأعضائه قد تم المتاجرة بها، ونطافه تباع في بنوك... إلخ، مما أدى إلى تحويل الخريطة الجيوبشرية للإنسان. هذه المشاكل المعاصرة والتي بالفعل قد تنبأ بها فيورباخ سابقا محددا أسبابها: وهي تعود للحظة التاريخية التي قسم فيها العالم إلى فكر ووجود "**الفلسفة الديكارتية**" والتي قاست الإنسان بالفكر لا بمقدار إنسانيته، ثم تلك الفلسفات التجريبية، حولت الإنسان لفأر تجارب، مطبقة عليه المنهج التجريبي مثله مثل الجماد، النبات والحيوان، فصار البشر فئران تجارب بلغة المفكر المصري أنيس فهمي. هذا على الجانب الخاص والاجتماعي، أما على الجانب السياسي فلا يخص علينا اليوم ما يعيشه الإنسان من سلب وقهر واضطهاد، جراء الحروب والنزاعات السياسية والتي كان سببها جشع الإنسان وتحكمه في العلوم فاكتشف ما يسمى بالأسلحة البيولوجية الفتاكة، الأسلحة النووية، الجمرة الخبيثة... إلخ، والأمثلة في هذا المجال لا تعد ولا تحصى كفاجعة هيروشيما ونكازاكي...إلخ. السبب الأول والأخير هنا هو انعدام الإنسانية، طمع الإنسان، الظلم، التسلط التقني والعلمي على الذات الإنسانية، انعدام روح المحبة في ذوات البشر، خصوصا هذه النقطة – انعدام المحبة – تدفعها لاستدعاء الفلسفة الفيورباخية الآن، تلك الفلسفة الإنسانية التي قوامها الحب، بعودة الإنسان لأخيه الإنسان ومحبته له، وخلق سعادة مشتركة عامة، قائمة على السعادة الفردية، والوعي الإنساني والإرادة والتي دافعها الأساسي هو السعادة.

وفي ذلك يقول فيورباخ: "**من الاتصال فقط، من محادثة الإنسان مع الإنسان فقط، تولد الأفكار ليس شخص واحد بل بإثنين يتم الوصول إلى المفاهيم وإلى العقل بوجه عام يجب وجود شخصين لتوليد الإنسان، الإنسان الروحاني كما الإنسان الجسماني: اتحاد الإنسان مع الإنسان هو المبدأ والمعيار الأولان للحقيقة والكلية. حتى التأكد من وجود أشياء خارجا على يمر بالنسبة لي من خلال التأكد من وجود إنسان آخر خارجا عني، أنا أشك بما أراه بمفردي، وحده يقيني ما يراه الآخر أيضا**".[1]

فالأنت هو الصلة بيني وبين العالم الخارجي، والإنسان المنطوي والمنعزل لا يمكنه أن يفهم ذاته الداخلية وماهيته إلا من خلال الآخر، أو من خلال المجتمع، ومن خلال توحد الفرد مع بقية الأفراد ومحبته لهم دون التمييز بينهم من أي ناحية، بل بالنظر إليهم على أساس أنهم كلهم أفراد متساوون، كل فرد منهم يفهم نفسه ويعي ذاته، ومن خلال وعيه لذاته يعي ذوات الآخرين، ومن خلال حبه لنفسه يحب أنفس الآخرين.

[1] حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ص291.

هذا هو الفكر الذي يحتاج الإنسان المعاصر أن يتشبع منه، ها هو علاج الإنسان المغترب، الإنسان المنمط المنشيء، المكتأب. إنسان ما بعد الحداثة، إنسان خلقت فيه بعض الفلسفات أمراضا وعقدا وكراهية، تتسم بالأنانية والفردية.

فعلا تضعنا الفلسفة الفيورباخية، أمام محك جديد لا يتعلق فقط بماهية الإنسان، بل يتعلق أساسا بتحققه الفعلي داخل الوجود، أي تحققه كواقعة إنسانية لا تنتهي بما يجعلها مغتربة عن ذاتها، ولكن بما يجعلها وجودا فعليا، أي أن السياق الذي يرتهن به هذا الوجود هو المصير الإنساني ذاته، ومن ثمة تجيب التساؤل حول الإنسان، يستدعي أننا الآن في عصر يحتاج فعلا إلى فيورباخ، فمآسي هذا العصر تظهر ليس في الأخلاق فقط بل في غياب الروح العلمية، فصارت الحقيقة حدا للعلم وليست إطلاقا له من كل الحدود وعندما يصل العلم إلى الحقيقة ويصبح حقيقة لا يكون علما بل يصبح موضوعا للشرطة، فهي من تمثل الحدود للحقيقة والعلم، وكأن السلطة السياسية لا يهمها إلا المحافظة على الزيف حتى تأمن المعارضة.[1]

وفي هذا السياق نستنتج ان فيورباخ ومن خلال اتباعه لمنهج الهدم والتأسيس نجده قد توصل لبنية أخلاقية متماسكة ومترابطة منطقيا ألا وهي: الإرادة، السعادة، الحب. فالإرادة ابتدأ بها كمفهوم مغاير لمفهوم الإرادة الذي عهدناه في بعض الفلسفات، فصارت لديها غاية وهي تحقيق السعادة، وتحقيق السعادة يجب أن لا يدخلنا في ظلمات الأنانية لذا وضع فيورباخ مشكاة يضيء بها، لينقلها للغير من خلال فكرة: الحب. وهي الفكرة التي طرحت عنده فيما بعد كموضوع سياسي ينبأ بولادة الاشتراكية.

[1] حسن حنفي، دراسات فلسفية، ص411.

وفي الأخير نتوصل الى الإنسان يعتبر بحد ذاته من أهم القضايا التي شغلت الفكر الفلسفي منذ العصور القديمة، بل حتى إنه الموضوع الأول والأخير للفلسفة، لكن الفلسفة كانت تعني بالقضايا التي شغلت هذا الكائن، كالميتافيزيقا، الماورائيات، المعرفة، أصل الكون...إلخ من المواضيع التي تشبع بها الفكر الفلسفي.

وفي ظل هذا البحث الفلسفي المكثف، والذي احتاج جميع هذه المجالات السابقة وأكثر، ظهر المشروع الفيروروباخي الفلسفي، كنظرة مختلفة ومغايرة لما عهدناه في الرؤى الفلسفية السابقة عنه، فحول مسار البحث الفلسفي فبعد أن كان يعني بما يشغل بال الإنسان، صار مع فيورباخ يهتم بالإنسان نفسه لقد قدم فيورباخ من خلال فلسفته الجديدة هذه، نقدا منهجيا للفلسفات السابقة عنه من زاوية موضع البحث فيها، فنجده يقف موقف رافض وناقد للاتجاه اللاهوتي الذي شكله بعض الفلسفات، وبالتالي تكون قضية الفلسفة بالنسبة إليه مختلف تماما عن هذا الاتجاه اللاهوتي الساعي إلى البحث عن ماهية الكون والله والنبوة والمعجزات... كذلك نجده في جوانب عديدة رفض الرفض المطلق تلك الفلسفات المثالية المتسامية التي ألهت العقل والتي جعلت منه هو سر الطبيعة الإنسانية. وهو أساس الكنه البشري، وفي نفس الوقت وجدنا فيورباخ كذلك رفض تلك الفلسفات الحسية، والتي رأت في المادة أساس الوجود.

إن محاولة هذه الفلسفات السابق ذكرها، تعتبر كمحاولات جانبية، ثانوية لا تشبع التساؤل الفلسفي كما أنها تضع الإصبع على الجرح الذي تنزف منه الفلسفة، فجميعها كانت محاولات لكنها حسبه لحد تحدد بدقة موضوع الفلسفة الأول، وبالتالي فهي لا تجيب إلا على الأسئلة التي تطرحها هي بنفسها، لكنها لم تقدم لنا أي جديد بالنسبة للإنسان، كإنسان.

إن فلسفة فيورباخ تجاوزت إطار الفلسفات النسقية، والفلسفات الجامدة، وتلك السكولائية... فالمشكلة الفلسفية ليست مشكلة منهج معرفي، أو بحث ما ورائي أن تقديم ركام من المعلومات المكدسة ذات المصطلحات الفلسفية الصعبة، لأن الإنسان في الأخير لن يستفيد منها، سوى ذلك الركام الهائل من المعارف الجامدة التي لن تعود حسبه له بالمنفعة في حياته البسيطة الشقية.

لقد رأى فيورباخ في الفلسفة، عبارة عن دراسة معمقة للإنسان، وقضاياه ومشاكله بصورة خاصة، ولعلاقاته مع غيره بصفة عامة... بهذا نستنتج بأن فلسفة فيورباخ الأخلاقية قد مرت بمراحل أساسية وهي:

لقد رفض فيورباخ اللاهوت نهائيا، لأنه رأى عبارة عن زيف ووهم يبعد الإنسان عن الواقع الحقيقي، كما أن دراسة اللاهوت حسبه لن تعود على الفرد بالنفع لأنها عبارة عن هروب فعلي من الواقع المعاش، على أساس أن فكرة الله ما هي إلا صورة انعكاسية رسمها الإنسان لنفسه، وما الصفات الإلهية سوى الصفات الإنسانية المثالية التي لم يستطع الإنسان تحقيقها على أرض الواقع. وبذلك هدم فيورباخ هنا ذلك الفكر البعيد على الواقع، خصوصا الفلسفة الهيجلية، التي شبهها باللاهوت في الكثير من المواضع. ليصل بعد ذلك إلى إعادة النظر في الخصائص الإنسانية الحقة، بعد أن هدم تلك اللاهوتية. فنجده قد ميز الإنسان عن سواه بالوعي. فأسرار هذا الكائن نجدها تكمن عنده في الإرادة. الوجدان والعاطفة.

بعدها يصل فيورباخ إلى مرحلة التأسيس الأنثروبولوجي، الذي لحق مرحلة الهدم، فأسس سرحا أنثروبولوجيا- الإنسانولوجيا- واضعا ملامح الإنسان الجديد، الإنسان الفيورباخي، الذي قد تحرر من ذلك السجن الميتافيوزيقي، اللاهوتي أو المادي المجرد.

إن الفكر الأخلاقي الفيورباخي لم يكن وليد صدفة، بل كان عبارة عن نتيجة حتمية للمراحل السابقة، هذا السرح الأخلاقي الذي ينبض بالعاطفة —الحب- الإرادة والسعادة. كان وليد تلك المراحل الأولى، الهدم ثم التأسيس.

فالحق أن الإنسان العاقل لا يستطيع التماشي وفقا لإرادته، إذا لم يكن راسما لها غايتها الأصلية والحقة، وهي تحقيق السعادة، هذه السعادة التي انتقل بها فيورباخ من دائرة الخاص ليصل بها للعام ولا يستطيع الوصول بها إلا بعاطفة واحدة هي التي تقوم بدفع هذه الترسانة هذه العاطفة هي عاطفة الحب. فالحب وحده الذي يخرج الفرد من قوقعة الأنانية والفردية، ليدخله في ذاته الآخر أي ما يسمى بالغيرية.

وبهذا يكون فيورباخ قد استبدل اللاهوت بالدين الذي يجمع البشرية كافة ألا وهو الحب.

هذا الحب الشامل، العام، الكلي سيصبح عبارة عن نظام أخلاقي سياسي وضعه فيورباخ كخلاصة عامة أو حوصلة لفكره...

هذه المراحل السابقة الذكر، دفعتنا إلى التوصل إلى النتائج التالية:

-إن نقد فيورباخ للاهوت، لا يعتبر مناداة للإلحاد، ورفضه الله، بقدر ما يعتبر كمحاولة فلسفية لإرجاع الاعتبار للإنسان.

-كذلك رفض فيورباخ للفلسفات السابقة عليه، بما في ذلك من إنزاله لهيجل عن عرض الفلسفة، هو عبارة عن منهج جدلي الغاية منه، استبدال كل ما هو مثالي، لاهوتي أو مادي بما هو أنثوروبولوجي. ليصبح الإنسان هو محور الاهتمام الأول والأخير للفلسفة.

-إن الفكر الأخلاقي الفيورباخي، هو عبارة عن نتيجة حتمية للإنسانولوجيا، التي نادى بها. وعليه فمرحلتي الهدم والتأسيس، هما المقدمتان الكبرى والصغرى لنتيجة الفكر الأخلاقي في الفيورباخي.

المصادر المراجع:

أولا: المصادر

1. ـــــ ـــــ، جوهر المسيحية، ط1، تر جورج برشين، دار الرافدين، بيروت.1975.

2. ـــــ ـــــ، مبادئ فلسفة المستقبل، تر وتقديم إلياس مقرص، دار الحقيقة، بيروت الطبعة الأولى، 1975.

3. ـــــ ـــــ، أصل الدين، ترجمة أحمد عبد الحليم عطية، ط1، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

ثانيا: المراجع

1. حسن حنفي، دراسات فلسفية، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
2. فرويد سيجموند، مستقبل وهم، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر.
3. إمام عبد الفتاح إمام، دراسات هيجلية، القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1985.
4. عبد الفتاح الديدي، فلسفة هيجل، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة. 1970.
5. روجي جارودي، كارل ماركس، تر جورج طرابيشي، الطبعة الأولى، بيروت: دار لبنان للطباعة والنشر، 1980.
6. حنا ديب، هيجل وفيورباخ، ط1. دار أمواج، لبنان،1994.
7. انجلر، لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، تر الياس شاهين، دار التقدم، لبنان.
8. أحمد عبد الحليم عطية، فيورباخ ماهية الدين، دار الثقافة العربية للطباعة والنشر، القاهرة. 2007.
9. هنري آرفون، لودفيغ فيورباخ، ط1، تر ابراهيم العريس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان.
10. روجي جارودي، كارل ماركس، ط1.تر جورج طرابيشي، دار لبنان للطباعة والنشر، لبنان،1980.
11. جماعة من الأساتذة السوفيات، الموجز في تاريخ الفلسفة، ط1، ترجمة توفيق سلوم، دار الفارابي، بيروت، 1989.
12. أحمد عبد الحليم عطية، الإنسان في فلسفة فيورباخ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان.2008

13. إيمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، تر عبد الغفار مكاوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة.

ثالثا: المعاجم والموسوعات

1. ابراهيم مدكور، المعجم الفلسفي، الهيئة العامة للشؤون الاميرية، القاهرة. 1982.
2. اندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، تر خليل احمد خليل، منشورات عويدات، بيروت، ط2. 2001.
3. جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، 2004.
4. جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج 1، دار الكتاب اللبناني، بيروت،1982
5. مراد وهبة، المعجم الفلسفي، القاهرة: دار القباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع، 200.
6. مراد وهبه، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، القاهرة، 2007

الفصل الأول

نقد فويرباخ للثيولوجيا

المبحث الأول : مصادر الأخلاق عند فيورباخ

المبحث الثاني : هيجل و اللاهوت

المبحث الثالث: حقيقة الثيولوجيا

الفصل الثاني

تأسيسه للأنثربولوجيا (إنسانولوجيا)

المبحث الأول: انثروبولوجيته الفلسفية

المبحث الثاني: أبعاد الانسان الفيورباخي

المبحث الثالث : ازدواجية الطبيعة البشرية

الفصل الثالث

ثلاثية الفكر الأخلاقي عند فويرباخ

المبحث الأول : الإرادة و السعادة

المبحث الثاني : الحب

المبحث الثالث : نحو فلسفة مستقبلية

مقدمة

خاتمة

فهرس المحتويات

قائمة المصادر والمراجع